علم اجتماع

إرتيابات الوقت الرّاهن

1923

غُوستاف لُو بون

ترجمة

د. باسل الزّين

دار الفارابي

إرتيابات
الوقت الرّاهن

1923

ارتيابات الوقت الرّاهن (1923)

غوستاف لو بون

ترجمة: د. باسل الزّين

عنوان الكتاب باللغة الأصلية:

Les Incertitudes de l'Heure Présente

ترجمة عنوان الكتاب باللغة الإنكليزية:

The Uncertainties of the Present Time

By Gustave Le Bon

Translated by Dr. Bassel AlZein

الطبعة الأولى: يناير ـ كانون الثاني، 2022 (1000 نسخة)

Arabic Translation Copyrights@Dar Al _ Rafidain2020

(C) جميع حقوق الطبع محفوظة/ All Rights Reserved

حقوق النشر تعزز الإبداع، تشجع الطروحات المتنوعة والمختلفة، تطلق حرية التعبير، وتخلق ثقافةً نابضةً بالحياة. شكراً جزيلاً لك لشرائك نسخةً أصليةً من هذا الكتاب ولاحترامك حقوق النشر من خلال امتناعك عن إعادة إنتاجه أو نسخه أو تصويره أو توزيعه أو أيٍّ من أجزائه بأي شكلٍ من الأشكال دون إذن. أنت تدعم الكتّاب والمترجمين وتسمح للرافدين أن تستمرّ برفد جميع القراء بالكتب.

بغداد ـ العراق/ شارع المتنبي عمارة الكاهجي

تلفون: 9647811005860/+9647714440520+

www.daralrafidain.com
info@daralrafidain.com
daralrafidain@yahoo.com
Dar ALRafidain دار الرافدين

daralrafidain
dar.alrafidain
dar_alrafidain
daralrafidain دار الرافدين

تنبيه: إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبّر عن رأي كاتبها، ولا تعبّر بالضرورة عن رأي الناشر.

ISBN: 978 - 9922 - 643 - 89 - 2

غوستاف لو بون

إرتيابات الوقت الراهن

1923

ترجمة
د. باسل الزّين

www.daralrafidain.com

الفهرس

تقديم 9
إهداء 13
مُقدِّمة 15
الفصل الأوّل: الحياة السياسيّة 19
1 ـ اضطرابات سياسيّة وأخلاقيّة خلقتها الحرب 19
2 ـ الصعوبات الحديثة التي تواجه الحكومات 21
3 ـ المعتقدات السياسيّة 25
4 ـ الشّعارات السياسيّة 28
5 ـ أخطاء السيكولوجيا في السياسة 29
الفصل الثّاني: الحروب، والثورات، ونزع السلاح 37
1 ـ الأسباب المستقبليّة للحرب والانتقام الألمانيّ 37
2 ـ الصراعات من أجل السيطرة 40
3 ـ الأوهام المتعلّقة بإمكانيّة نزع السّلاح 42
4 ـ الارتيابات حول أصول الحرب 43
5 ـ أسباب الثورات 45
6 ـ نتائج الثورات 47
الفصل الثّالث: العلاقات الدوليّة والتّحالفات 51
1 ـ العلاقات الدوليّة 51
2 ـ القوى الاقتصاديّة 53
3 ـ معاهدات السّلام والمؤتمرات السياسيّة 55
4 ـ معاهدات التّحالف وقيمتها 58
5 ـ مجتمع الأمم 62

الفصل الرابع: الحقّ والأخلاق 65
1 ـ الأعراف والقوانين 65
2 ـ الحقّ والقوّة 67
3 ـ القوى الأخلاقيّة 69
4 ـ مصادر الأخلاق 71
الفصل الخامس: أشكال الاستبداد الحديثة 75
1 ـ التّطرّف 75
2 ـ الاشتراكيّة 77
3 ـ الحركة النّقابيّة 79
4 ـ الشيوعيّة 81
5 ـ المساواة والحاجة إلى العبوديّة 82
الفصل السّادس: تطوّر الحضارات 85
1 ـ كيف تُولد الحضارات وكيف تزول؟ 85
2 ـ المؤسّسات السياسيّة 88
3 ـ بعض تبعات الأفكار الديمقراطيّة 90
4 ـ الروايات التاريخيّة 92
الفصل السّابع: الذّكاء، والشّخصيّة، والتّربية 95
1 ـ سوء التّفاهم وصراع الذّهنيّات 95
2 ـ الطّبع والذّكاء في حياة الشّعوب 97
3 ـ الذكاء، والمشاعر، والحدس 101
4 ـ التّعليم والتّربية 103
الفصل الثّامن: التأثيرات الواعية واللا واعية في حياة الشّعوب 107
1 ـ الحياة الواعية والحياة اللا واعية 107
2 ـ الحياة الجماعيّة ودور القادة 109
3 ـ روح الشّعوب 111
4 ـ تَرَجُّح الرّأي 114

الفصل التّاسع: تطوّر الآلهة عبر التاريخ 117
1 ـ دور الآلهة 117
2 ـ سلطة المعتقدات 120
3 ـ الأشكال المختلفة للمعتقدات 121
4 ـ العقل والإيمان 124
الفصل العاشر: رؤى فلسفيّة للعالَم 129
1 ـ مفاهيم فلسفيّة عن العالَم 129
2 ـ الحقيقة واليقين 132
3 ـ قوانين الحياة 135
4 ـ الحكمة والسّعادة 137
5 ـ اللا مُتَوَقَّع ومنطقةُ الأسباب 139

تقديم

لا نُغالي إذا قلنا بأنّ هذا الكتاب يُمثّل مرحلةَ تحوّلٍ مفصليّة في كتابات لو بون. بعبارةٍ أوضح، لم يُبادر كاتبنا في كتاباته السّابقة إلى التّكثيف والإيجاز إلّا في مواضعَ بعينها. بيد أنّه عمَدَ في كتابه هذا إلى تقديم خلاصاته الفكريّة الاستشرافيّة، وتأمّلاته القَصِيّة في شكل شَذَراتٍ مكثّفة، وعباراتٍ موجزة.

الحقّ أنّ الكتابة الشّذريّة، التي تعود جذورها إلى نيتشه، كتابة متألّقة واستنزافيّة في آنٍ معًا. فمن جهة تحشد أكبر قَدْرٍ من الأفكار والمفاهيم في أقلّ قدرٍ من الكلمات والصِّيَغ التّعبيريّة، ومن جهة أخرى تستنزف طاقةَ القارئ أو المُتَلقي، من حيثُ تطلُّبُها تمعّنًا كبيرًا، وتبصّرًا عميقًا، وتحليلًا هادئًا، وتأمّلًا رصينًا.

والحال أنّ أيّ محاولة لاختزال هذا الكتاب في جملةِ خلاصات عمليّةٌ تجنٍّ وسَلبٍ لغزارة مضامينه، وسَعَة أفكاره، وارتياباتِ اسْتِشرافه.

لكن أوّل ما يتبادر إلى الذّهن: لماذا ارتيابات الوقت الرّاهن؟

الحقّ أنّ الكاتب يستشرف ملامحَ حقبةٍ جديدة بالتّمام. ولهذه الغاية، لم يكتفِ بمعالجة الأُطُر السياسيّة والاقتصاديّة والسيكولوجيّة، كما كان دَأْبه في الكتب السّابقة، بل عمد كذلك إلى حشد جملة من المفاهيم

الفلسفيّة، والأفكار العلميّة، في محاولة منه لتقصّي المسألة العالميّة بعامّة، والأوروبيّة بخاصّة، من جوانبها كافة.

بهذا المعنى، يُمكننا أن نوجِزَ بعضًا من هذه المضامين في النّقاط الستّ الآتية:

1 ـ النّظر إلى التّحالفات: لا يُمكن النّظر إلى التّحالفات التي أُرسيَت في الحرب العالميّة الأولى على أنّها تحالفات منجزة ونهائيّة ودائمة. في هذا الصّدد، يُشير لو بون إلى رغبة إنكلترا في التسيّد على العالَم، ولهذه الغاية، جهدت بكلّ ما أوتيَت من سُبل من أجل الحؤول دون ازدهار فرنسا وتقدّمها، ومن أجل مدّ جسور تلاقٍ مع ألمانيا، ومنحها كلّ الوسائل اللازمة (اقتصاديّة، وماليّة، وتجاريّة...) كي تنهض من جديد. وعليه، ينشأ الارتياب الأوّل من التحوّل الجذريّ في بنية التّحالفات، وهو أمر يُنذر حتمًا بنشوب حروبٍ مستقبليّة، ليس أقلّها سعي ألمانيا إلى الانتقام من الخسارة التي عَصَفت بها، والشّروط المذِلّة التي وقّعت عليها.

2 ـ بنية الثّورات: ثمّة بَونٌ شاسعٌ بين الوعود الثوريّة، والنّتائج الواقعيّة التي تتمخّض عنها. بهذا المعنى، يرى لو بون أنّ الأهداف الثوريّة لم تعدُ كونها وعودًا خُلَّبِيّةً استطاع قادة الثورات توظيفها خيرَ توظيف من أجل الوصول إلى السلطة. والحال أنّ قادة الثورات لم يتوانَوْا، بعد نجاح ثوراتهم، عن تكريس السلطات الاستبداديّة، والتفرّد بالحكم، وإنزال أقسى أنواع الظّلم في حقّ المواطنين والثوّار. إلى ذلك، يرى كاتبنا في هذا التحوّل الثوريّ سُنّةً تاريخيّة، وحتميّة إنسانويّة، ذلك بأنّ الخروج على الأهداف المتوخاة هو في حدّ ذاته تكريس للهدف المنشود المسكوت عنه، والمَرْمَى البعيد المُراد الوصول إليه.

3 ـ تحوّل ذهنيّة الحكّام: يرى لو بون أنّ الحكّام باتوا أكثر التزامًا بالإرادة الشّعبيّة، وأرضخ للرأي العام. لكن هذا لا يعني على الإطلاق أنّهم امتثلوا لهم، أو نفّذوا مطالِبَهم. كلّ ما في الأمر أنّهم أوهموهم بالإنصات إليهم، كي يُبقوا على مواقعهم السلطويّة، وعمدوا في الخفاء إلى تنفيذ السياسات التي آمنوا بها، ودافعوا عنها.

4 ـ التّدمير الفكريّ: بحسب لو بون، لا يُقاس حجم الخسائر الاقتصاديّة بحجم الدمار الفكريّ. لذا تراه لم يُوفِّر جهدًا في سبيل تَبْيان الدمار الفكريّ الذي تأتّى من ولادة منظومات إيديولوجيّة جديدة، أو من استعادة إيديولوجيّات قديمة، إلى حدّ أمكن له أن يقول معه بأنّ العودة إلى العصور البربريّة عودة محتملة في ظلّ تنامي الاستبداد، وتكريس الأفكار الاشتراكيّة، والمفاهيم الشيوعيّة.

5 ـ إرادة المهزوم: يرى كاتِبُنا أنّ الحرب لا تُنصِفِ الغالب، وتُهلِك المهزوم، ذلك بأنّ نتائجها الكارثيّة ستمتدّ لتطال المستقبل البعيد، لا سِيّما إذا عرفنا أنّ الغالب سيطمئنّ إلى انتصاره، والمغلوب سيؤوب من حقول ضياعه، ويُحاول جاهدًا أن يقلب هزيمته انتصارًا. لذلك نراه يتوجّس بشدّة من الحراك الألمانيّ، ومن نهضتها الاقتصاديّة، وثورتها الصناعيّة.

6 ـ سبل الخلاص: يبدو أنّ الخلاص الوحيد، بالنّسبة إلى لو بون، هو في وعي الشّعوب ماهيّة ترابطها، وعدم قدرتها على الاستغناء بعضها عن بعض. عند هذا الحدّ، تلعب المنفعة المشتركة دور الجامع بعد أن لعبَتِ الحروبُ دور المفرِّق، ويحلّ التضامن الإنسانيّ المبنيّ على أسس التلاقي والحوار محلّ التّخاصم والتّنابذ والاعتراك. إنّ الرّهان معقود اليوم على وعي الشّعوب مصالِحَها، ومعرفتها أنّ الحروب لا يُمكن أن

تعود بالنّفع عليها حتّى وإن استطاعت أن تُحقّق من خلالها انتصارات ساحقة.

لا يفوتنا أن نُشير، في الختام، إلى البعد الفلسفيّ الذي قلّما طالعناه في كتب لو بون من قبل، وبخاصّة لجهة مقارنته الأديان التوحيديّة بالأديان المتعدّدة الآلهة، وبحثه في نشأة العالَم، وبُنى الأخلاق، وتشكيل اليقينيات، ودور العلم في الكشف عن العلل الأولى، إلخ.

خلاصة القول، يطرح كتاب ارتيابات الوقت الراهن مجموعة من الأسئلة المفتوحة، ولا يدّعي أنّه يملك إجابات عنها، فجلّ ما في الأمر أنّه يُحاكي ضمير العصر، ويستنجد بالإنسانيّة التي يَعِي جيّدًا أنّ الدوافع الانفعاليّة هي التي تتحكّم بها. ومع ذلك، يأمل لو بون في أن يكون قد قال كلمته قبل أن يمضي.

د. باسل الزّين

10 تشرين الأوّل 2021

إهداء

إلى صديقي أريستيد بْرَيند Aristide Briand

رئيس سابق لمجلس الوزراء

تخليدًا لذكرى أحاديثنا الفلسفيّة الطويلة في خلال سنوات الحرب الثّقيلة، والأوقات المريبة التي تَلَتْها.

غوستاف لو بون

مُقدِّمة

ـ 1 ـ

وَلَّد التطوّرُ العلميّ الحديث ضروراتٍ اقتصاديّة تتعارض بوضوح مع الدوافع الانفعاليّة والصوفيّة، التي وَجّهت أفعال النّاس، منذ بدايات التاريخ.

هذا التعارض، الذي يتفاقم في كلّ يوم، هو سبب من الأسباب البعيدة الكامنة وراء اختلال التوازن الحاليّ. فحِقْبتنا تتَرَجَّح بين التأثيرات الوراثيّة التي وَجَّهَتِ العالَمَ قديمًا، والضرورات الناجمة عن الاكتشافات العلميّة الحديثة.

وعليه، كيف بالإمكان التّوفيق بين الطموحات، والمنافسات، والكراهيات، التي تدفع الأعراق نحو صراعات محتدمة، والتّداخل الاقتصاديّ الذي يجمعها من خلال ترابطٍ قويّ للغاية، إذ سَرْعان ما يطال الضررُ، الذي يلحق بواحدها، كلَّ الأعراق الأخرى؟

ـ 2 ـ

لم ينجَحِ التّرابطُ في جعل التّضامن قانونًا من قوانين العالَم الحديث، لأنّ الأهواء والمشاعر ـ المولِّدة الاعتياديّة للسلوك ـ هي نتاجُ وإرثُ ماضٍ طويل، في حين أنّ الضرورات الاقتصاديّة الجديدة، التي يعود تاريخها إلى الأمس، تَزِنُ قليلًا في ميزان الدوافع التي يتصرّف الناس بموجِبِها.

الواقع أنّ هيمنة القوى الانفعاليّة والصوفيّة على القوى العقلانيّة يجب أن تكون حاضرة في الذّهن دائمًا عندما نُريد أن نفهم نشأة الحوادث الكبرى التي تُبَلْبِلُ حياة الشّعوب.

وبعد، من شأن الاعتقاد بأنّ المنطق العقلانيّ المحض هو الذي يُحدّد تلك الحوادث، أن يقودنا إلى أوهام مُريعة.

لقد وقع دعاةُ السّلام ضحيّتها، عَشِيّة الحرب، عندما أكّدوا، بمعيّة أستاذ شهير في السوربون، أنّ حربًا بين فرنسا وألمانيا كانت منطقيًّا مستحيلة، لذا غدا الاستعداد العسكريّ المـُكلِف بالنسبة إليهم أمرًا غير مجدٍ على الإطلاق.

لكن سُرعان ما أثبتتْ لهمُ الوقائعُ أنّ منطق الأساتذة العلميّ لم يحكُمِ التاريخَ بعد. فالمنطقان الانفعاليّ والصوفيّ اللذان يُوّجهانه يخضعان لقوانينَ أخرى مختلفة تمامًا. وعليه، سوف نُشير إلى طبيعة تلك القوانين أكثر من مرّة في هذا المؤلَّف.

- 3 -

بطبيعة الحال، تختلف الأفكار التي وَلَّدتها اضطراباتُ الوقت الراهن تبعًا لعادات المراقِب الذهنيّة. فوِجهَات نظر العالِم لن تكون هي عينها وجهات نظر المؤمن الذي يحدُّ الإيمانُ أفقَه، ولا وجهات نظر رجل الدولة الذي تستحوذ عليه الضرورات اليوميّة، ولا أيضًا وجهات نظر أتباع أيّ حزب سياسيّ، الذين ينشغلون بمصالح هذا الحزب وحسب.

الواقع أنّ تجاوزَ هذه العوائق أمرٌ ضروريّ من أجل تبيّن أصول المشكلات وتبعاتها التي تُزعزع اليوم بعمق نفوس الشّعوب.

في ظلّ وضعيّة معارفنا الراهنة، وبعد الاضطرابات التي زعزعت البنية الاجتماعيّة القديمة، نتساءل: ما الأفكار التي يُمكن أن نكوّنها عن الحقّ، والأخلاق، والمؤسّسات، والمعتقدات الدينيّة، والسياسيّة، والاجتماعيّة التي وجّهت مسار الحضارات، وما زالت توجّهها؟

تحتاج الإجابة الوافية عن أسئلة كهذه إلى مجلّدات. تهيمن على الظواهر الاجتماعيّة، كما الظواهر الفيزيائيّة، على الرّغم من تعقيدها، بعض المبادئ الأساسيّة التي تنجم عنها مجموعة من الحالات الخاصّة، والتي يُمكن صياغتها باختصار. هذه المبادئ، بوصفها الأساس الحقيقيّ للأشياء، هي أكثر إيحاءً، في الأغلب، من الشروحات المطوّلة.

ولذلك قرّرتُ مرّة أخرى أن أُوجِزَ الملاحظات المشتقّة من الحوادث الكبرى، التي تزعزع حقبتنا، في أفكار مختصرة.

في هذا السياق، قد تكون آراءُ فيلسوفٍ استكشف العالَم كثيرًا، وبحث عن حقائقَ جديدةٍ في صمتِ المختبرات، على قدرٍ من الأهميّة.

وعليه، بإمكان هذه الآراء إذا تحرّرت من الأهواء المُضَلِّلة، والمهاترات العقيمة، أن تُبَدِّد الضّباب الذي يحجب الحاضر، ويجعل المستقبل غامضًا للغاية.

الفصل الأوّل

الحياة السياسيّة

1 ـ اضطرابات سياسيّة وأخلاقيّة خلقتها الحرب

يُعَدّ التغيّر العالميّ تَبِعَة من أكثر تبعات الحرب بروزًا. تغيّر المؤسسات، والتحالفات، والأفكار.

يجب ألّا تكون أوروبا الماديّة وحدها قادرةً على إعادة البناء فحسب، بل يجب أن تُعهد هذه المهمّة أيضًا إلى أوروبا الأخلاقيّة. مع ذلك، راحت الطموحات، والكراهيات، والحاجات تتنامى، في حين أنّ الرغبة في العمل، والالتزام، والشعور بالواجب أخذت كلّها تضعف أكثر فأكثر.

لقد تزعزعت كلّ البنى الاجتماعيّة القديمة بفعل النزاع العالميّ، إلى حدّ راحت الشّعوب معه تتلمّس طريقها نحو مؤسساتٍ جديدة. وإذا ما عادت باستمرار إلى المؤسسات القديمة، فذلك على الأرجح لأنّه لا توجد مؤسسات أخرى.

الواقع أنّ توازناتِ الدّول التي تشكّلت قبل الحرب كانت ثابتةً لأنّها استغرقت قرونًا كي تتشكّل. أمّا التوازنات المصطنعة التي خُلِقت منذ

السّلام فهي توازنات غير مستقرّة لأنّها اشتُقّت من مبادئَ نظريّة غريبة عن الوقائع.

من الواضح أنّ أوروبا تسير نحو تجمّعات سياسيّة جديدة لن تكون مثل تلك التي سبقت نشوب الحرب، ولا تلك التي أُسّست بموجِبها. فإيطاليا تتوجّه نحو إنكلترا، وألمانيا نحو إنكلترا وروسيا، وفرنسا نحو تركيا وبولندا والدول البلقانيّة. ثمّة صراعات كثيرة ستغدو ضروريّة من أجل ترسيخ التوازنات الجديدة هذه.

يُعَتبر انهيار الطبقات الفكريّة المتوسِّطة، وعودتها القسريّة إلى نصف ـ بروليتاريّة تتوافق مع رخاء البروليتاريين القدامى تبعةً من أخطر تبعات الحرب.

إنّ عدد الجنود الذين وقعوا ضحايا الحرب الكبرى معروف. أمّا عدد الأفكار والمعتقدات التي دمّرتها فما زال مجهولًا.

من بين الأسباب العميقة لاختلال التوازن الاجتماعيّ الحاليّ، تبرز الخسارة الجزئيّة للعادات الذهنيّة التي وجّهت السلوك قديمًا، وأعفَت من التفكير المعمّق قبل الإقدام على أيّ تصرّف.

عندما تنهار الأفكار التي تدعم مجتمعًا بعينه، يقع هذا المجتمع في الفوضى وصولًا إلى اليوم الذي يعثر فيه مجدّدًا على مبادئَ موجِّهة أخرى قويّة بما يكفي، بالنسبة إليه، كي يُكَوِّن بنية جديدة. وعليه، يستتبع كلّ تغيير في المثل الأعلى اضطراباتٍ عميقة، ذلك بأنّ المَمَرّ من مَثَلٍ أعلى إلى آخر هو على الدوام ممرّ طويل للغاية.

2 ـ الصعوبات الحديثة التي تواجه الحكومات

الحقيقة، بالنّسبة إلى السواد الأعظم من الناس، هي ما يؤمنون به، لذا يجب أن تُحكَم الشّعوب، قبل كلّ شيء، عن طريق معتقداتها.

من بين المعارف السيكولوجيّة الأكثر ضرورة بالنّسبة إلى الحكّام، يبرز فنّ اختراق ذهنيّة النّاس الذين تختلف أفكارهم عن أفكار هؤلاء الحكّام، والتّفكير بموجِب هذه الأفكار.

تكمن واحدةٌ من الصعوبات الخطيرة في مجال السياسة في الالتزام، أثناء الحكم، بأفكار تعتبرها الجماهير صحيحة في حين أنّها خاطئة.

قديمًا، حكم رجال الدّولة استنادًا إلى عادات وتُراثات ثابتة. لكنّ رجال الدولة اليوم مُجبرون على اتّباع القناعات الشعبيّة المتغيِّرة. ينبغي لهم أن يكتفوا باقتراح آراء يُمكن قَبُولها، ومحاولة تعديل الآراء التي لم تُقبَل.

يُمكن بلدٌ أن يُغيّر حكومة، لكنّ تراثاته السياسيّة لا تتغيّر البتّة. في هذا السياق واصل المؤتمر الوطنيّ الفرنسيّ[1] في الكثير من النقاط سياسة لويس الرابع عشر. والبلشفيّون أنفسهم اتّبعوا في الشرق سياسة القياصرة.

يجب على الحكّام أن يعرفوا كيف يتبيّنون المشاعر التي تُحرِّك النّاس، من دون أن يهتمّوا كثيرًا بالتأثيرات العقلانيّة التي ينبغي لها أن تجعلهم يتصرّفون.

مهما كان شكل الحكم، فإنّه يقود دائمًا إلى أولِغارشيّة مستمرّة في النظام الملكيّ، وإلى أولغارشيّة موقّتة في النظام الديمقراطيّ.

---

(1) شكّل المؤتمر الوطنيّ الجمعيّة الدستوريّة والتشريعيّة في فرنسا التي حكمت فرنسا من العام 1792 حتّى العام 1795. انظر ويكيبيديا. (المترجم)

ينبغي للحكّام أن يعلموا ماذا يُريدون تحديدًا، وماذا يستطيعون القيام به، لكن ينبغي لهم أيضًا أن يعلموا ماذا يُريد خصومهم وماذا يستطيعون فعله.

إنّ معرفة حدود قدرتهم جيّدًا أمر ضروريّ كي لا يتجاوزوا الحدود التي قد تُظهِر ضعفهم.

غالبًا ما تعود إثارة الحوادث إلى رجال الدولة، لكنّ هؤلاء الأخيرين يبقون عاجزين أمام تتابعها.

كان بإمكان ألمانيا أن تُقرِّر خوضَ حرب غواصات من عدمه، حربٍ تجاوزت بمجرّد اندلاعها كلّ حدّ، وأفضت إلى تدخّل الولايات المتّحدة. بدوره، كان رئيس الوزراء الإنكليزيّ لِيَنْصَح البولنديّين، لو أنّهم استمعوا إليه، بالتعامل مع الجيش البلشفيّ الذي يُحاصر عاصمتهم، ويُحضِّر لاجتياح أوروبا.

في الدّول التي تتألّف من شعوب تختلف عن طريق الدين، والعرق، واللغة، يُعتبر النظامُ الاستبداديّ النظامَ الوحيد القادر على منع الصراعات الداخليّة الدمويّة. لم يقتَبِلِ البلقانيّونَ على هذا النحو إلّا منذ تحرّرهم من الهيمنة التركيّة. الحقّ أنّ هذه الهيمنة هي التي نجحت في إرساء السلام بينهم لمدّة خمسمئة عام.

الواقع أنّ التراجع أمام أيّ خطر له نتيجة واحدة مؤكّدة، ألا وهي جعله يتعاظم.

في السياسة، تُعتبَر عدم مقاومة قوّة مُعادية ناشئة اعترافًا بأنّها غَدَتْ قوّةً

لا تُقاوم. لقد اختبر الجيروندیون[1] من مختلِف الفئات العمريّة هذا الأمر. قاد القانون الأزليّ هذا الثورة الروسيّة، التي كانت بادئ ذي بدء سلميّة، إلى أن تغرق في دكتاتوريّة دمويّة.

حقيقة الأمر أنّ الرُّسل لا يُقاتلون إلّا الرّسل، وليس بالإمكان الانتصار على القادة إلّا بمعارضتهم عن طريق قادة آخرين.

بهذا المعنى، لا يُمكن أيّ وزير أن يغدُوَ هو الشّخص نفسه في السلطة، وفي خارج السلطة. في السلطة، يهتمّ، بالضّرورة، بالمصالح العامّة. في خارج السلطة، يتبيّن مصالحه الخاصّة فحسب، إذ يكمن ما هو أهمّ بالنّسبة إليه في العودة إلى السلطة.

إلى ذلك، يُمكن القول بأنّ الصداقة بين رجال السياسة الذين ينتمون إلى أحزاب مختلفة أمر مستحيل. أمّا الغيرة بين الرجال، الذين ينتمون إلى الحزب نفسه، فهي بصفة عامّة قويّة للغاية بحيث لا تسمح بتكوين صداقات.

وعليه، إذا كان العمل الدبلوماسيّ يقتضي اختبارًا يُثبت المعرفة بشخصيّة الشّعوب المختلفة، وبِرَدّات فعلهم المختلفة تَبَعًا للظروف

---

(1) الجيروندیّون: les Girondins: أعضاء حزب سياسي فرنسي نشأ أثناء الثورة الفرنسيّة. وجاءت تسمية الحزب بهذا الاسم لأن معظم القادة المُنَظِّمين له ينتمون إلى مقاطعة جيروند. والجيروندیون جمهوريون. ويمثلون البرجوازيَّة (الطَّبَقة المتوسطة) ويؤمنون بالمِلكية الخاصة. ويخشون من سيطرة باريس على فرنسا كلِّها. وكانوا يفضِّلون التَّخلص من المَلَكِيَّة في فرنسا وإنشاء جمهورية فدرالية. وأهمُّ شخصيتين من الجيروندیين هما جاك ـ پيير بريسو دي وارفيلي وجان ماري رولان دلا پلاتيير. انظر ويكيبيديا. (المترجم)

وللوسائل التي تؤثّر بفعاليّة في سلوكهم، فإنّنا، من دون شكّ، لن نجد في أوروبا عشرة رجال قادرين على تجاوز هذا الاختبار.

من شأن معرفة متعمّقة بالأشياء أن تشلّ القدرة على الفعل. يمتلك رجال الدولة عقلًا واسعًا بما يكفي كي يُدركوا كلّ التبعات الممكنة لقراراتهم التي قد تؤثّر بعض الشيء.

من شأن رجل الدولة القادر على توقّع كلّ عواقب أفعاله أن يُقارَن بلاعب الشطرنج الذي يقرأ على رقعة خصمه الاحتمالات اللا مرئيّة الناجمة عن تحريك القِطع المرئيّة.

الواقع أنّ الحياة السياسيّة والاجتماعيّة ليست ممكنة إلّا بوساطة التعاملات، والتسويات، ذلك بأنّ التعنّت يُشكّل مذهبًا من أخطر المذاهب.

بعبارة أوضح، تُحاط أيّ حكومة كانت، على الدوام، بقوًى معادية. وعليه، تكمن المهارة في توجيهها كي لا تُضْطَرّ إلى محاربتها.

في السياسة، يبدو من المستحيل الحكم بإنصاف على آراء أيّ خصم.

وبعد، حسنًا فَعَل رجال السياسة باستخدامهم المنطق العقليّ في خطاباتهم، لكن يجدر بهم ألّا ينسوا أنّ الشّعوب تُقاد في الغالب عن طريق المشاعر، والمعتقدات، والمصالح الغريبة للغاية عن منطق الكتب.

كي يحتفظ تهديدٌ سياسيّ بمكانته، ينبغي لمـُطْلِقه أن يتراجع عن تحقيقه قدر المستطاع.

إلى ذلك، يُساعد الزمن الحكومات القويّة، لكنّه نادرًا ما يُساعد الحكومات الضعيفة.

بهذا المعنى، ينبغي لأسياد الشّعوب ألّا يحكموا الأحياء وحسب، بل يجب أن يأخذوا بالاعتبار كذلك رغبة الأموات المـُلِحّة.

3 ـ المعتقدات السياسيّة

تملك المعتقدات الدينيّة والمعتقدات السياسيّة أُسسًا سيكولوجيّة متماثلة. فهي تُولَد وتنتشر بالطريقة نفسها.

الواقع أنّه يتعذّر فهمُ انتشار بعض المعتقدات، مثل الشيوعيّة، إذا تجاهلنا حاجةَ المعتَقَد الصوفيّة، أي المعتقد الذي يُهيمن على حياة الشّعوب.

الحقائق العلميّة هي حقائقُ كليّة. أمّا المعتقدات السياسيّة، التي يُتَعَاطى معها على أنّها حقائق، فتُمثِّل عادةً قناعاتٍ موقّتة، ومُتَحدِّرة من الأهواء والمشاعر التي لا يحكمها العقل البتّة.

إذا بدتِ الأديان غيرَ قادرةٍ بعد على التأثير في النفوس، فإنّ قوّتها تستمرّ في اللا وعي، وتظلّ قادرة على التأثير. بهذا المعنى، تُمثّل الكراهية ضدّ تركيا، التي تجلّت بقوّة من خلال الإنكليز والأمريكيّين، استمرارًا سلفيًّا للصراع المتقادِم بين الهلال والصليب.

حقيقة الأمر أنّ أيّ معتقد سياسيّ هو، في الغالب، فعلُ إيمانٍ يفتقر إلى ركيزة عقلانيّة. فهو يملك، كأصلٍ له، الاستياء لدى الأميّين، والرغبة والطموح لدى الأناس المتعلّمين.

مهما يكن أيّ معتقد سياسيّ هدّامًا، فإنّه يجد على الدوام مثقّفين يُدافعون عنه، مثقفين تتجاوز طموحاتهم حدود قدراتهم.

تجذب بعض المعتقدات السياسيّة جمهرةً من الخطباء الذين لا

يكترثون على الإطلاق لهذه المعتقدات، لكنّهم يأملون في أن يستخدموها من أجل أطماعهم. لو كان كاتيلينا[1] Catilina حيًّا اليوم لأعلن نفسه نقابيًّا أو بلشفيًّا.

الواقع أنّ المعتقد الخاطئ عقلانيًّا ـ القادر على تحقيق التضامن بين الناس ـ متفوّق سياسيًّا على مذهب صائب عقلانيًّا، لكنّه عاجز عن خلق وَحْدة الفكر التي لا تستطيع الشّعوب أن تزدهر من دونها. وعليه، ينبغي لتاريخ المعتقدات السياسيّة والدينيّة أن يحكم على نفسه على هَدْيِ هذا المبدأ.

نحن نتصوّر بصعوبة وجود شعب تحكمه الحقائق، في حين أنّنا نتصوّر بسهولة وجود شعب تحكمه الأوهام الدينيّة، أو السياسيّة، أو الاجتماعيّة. الحقّ أنّ التاريخ لا يُزوّدنا البتّة بأمثلة على التصوّر الأوّل.

ينفذ الذكاء قليلًا إلى مراحل العنصرين العاطفيّ والصوفيّ، حيث تتبلور المعتقدات السياسيّة والاجتماعيّة، إذ لا تختلف قناعات الأُمّيين عن قناعات العلماء اختلافًا كبيرًا.

يُفضي مثالُ الدكتاتور البلشفيّ الذي أصدر أوامره من الكرملين إلى الثوار المجتمعين بكامل التبجيل في مؤتمر في تور Tours كي يتلقّوا هذه الأوامر، إلى إظهار كم أنّ الحاجة إلى الخضوع للمعتقدات تبقى مُلِحّة حتّى لدى المتمرّدين الذين حاولوا أنفسهم تحرّروا من كلّ معتقد.

---

(1) لويسيوس سرجيوس كاتيلينا (108 ق. م ـ 62 ق. م): سياسيّ رومانيّ عُرِف بحبك المؤامرات التي أدّت إلى الإطاحة بمجلس الشيوخ في الجمهوريّة الرومانيّ. (المترجم)

حقيقة الأمر أنّ المعتقدات الصوفيّة، أو الدينيّة، أو السياسيّة، تُصبِح هدّامة حالما تصل إلى درجة معيّنة.

في الفنّ كما في السياسة، الهيبة هي مُنَظِّمٌ كبيرٌ للقيم. عندما اشترى متحف اللوفر لوحةً بلغ ثمنها 700.000 فرنك، مع العلم أنّها عُرِضَت عليه قبل بضع سنوات مقابل 20 ألف فرنك، دفع ببساطة ثمن الهيبة المكتسبة من خلال اسم المبدِع. تمثّلت القيمة الرقميّة لهذه الهيبة في الاختلاف بين كلا المبلغين. غالبًا ما تخضع هيبة الشعارات السياسيّة إلى تغيّرات مماثلة.

أدّى تطوّر البلشفيّة إلى إثبات ما يلي: يفرض مذهبٌ مُحَمَّلٌ بالآمال نفسه بسهولة أكبر من الحقائق العقلانيّة المُبرَهَن عليها أفضلَ برهان.

بهذا المعنى، شكّل الجمهوريّون والاشتراكيّون، على الرغم من تعاونهم العابر، حزبين متعارضين. مثّل الجمهوريّون الديمقراطيّة، أمّا الاشتراكيّون فمثّلوا الدكتاتوريّة.

تكمن إحدى قوى الشخص المقتنِع في عدم مناقشة القيمة العقلانيّة لمعتقده.

في السياسة والدين، حَلَمَ المقتنعون، على الدوام، بامتلاك القدرة على ذبح الناس الذين لا يُفكّرون مثلهم، من دون رحمة.

الواقع أنّ التعريف المميّز للراديكاليّة[1] هو ذاك الذي أعطاه قديمًا الرئيس ولسن، إذ قال: «يعني هذا المصطلح تبسيطيّة، وعنفًا، ورغبة».

---

(1) الراديكالية والجذرية من المبادئ السياسية التي تركّز على تغيير البنى الاجتماعية باتباع أساليب ثورية، وتغيير نظم القيم بأساليب جوهرية. وكلمة راديكالية مشتقة من المصطلح اللاتيني radix (جذر)، وقد تغير مدلولها منذ ابتداعها في القرن الثامن عشر لتستوعب الأطياف السياسية بالكامل. انظر ويكيبيديا. (المترجم)

سوف تستمرّ الراديكاليّة من دون شكّ وقتًا طويلًا، ذلك بأنّ الطبيعة البشريّة تفترض، عن طيب خاطر، أنّه بمقدور معايير بسيطة وعنيفة أن تُعالِج، على الفور، الشرور التي تنجم في الواقع عن مجموعة من الأسباب البعيدة والعميقة.

عندما تُفْهَمُ الأسبابُ السيكولوجيّة للحوادث وتعقيدها، سيوافق عدد كبير من الأناس المتعلّمين على تسمية أنفسهم راديكاليّين.

في السياسة، لا تعدو الحقيقةُ المؤكَّدةُ كونَها خطأً متكرّرًا بما فيه الكفاية.

4 ـ الشّعارات السياسيّة

في العلوم، تبقى قيمة أيّ فكرة مستقلّة عن الشعارات التي تترجمها. في السياسة، الشعارات وحدها هي التي تؤثّر في الجماهير.

في التجمعات السياسيّة تُهيمن هيبة الكلمة بشكل عام على الكفاءة.

الحقّ أنّ ما من فكرة تكتسب تأثيرًا إلّا بعد أن تُصبح جماعيّة. فهي تظهر من خلال شعارات، ويُمكن أن تُصبح قويّة بما يكفي كي توجّه حياة شعب بأكمله.

وبعد، من شأن شعارٍ يجري اختياره بعناية أن يكون قادرًا على زعزعة العالَم. وأكثر، كلّما كانت الشعارات بسيطة، ومختصرة، وعنيفة، مارستْ تأثيرًا أكبر بكثير من كلّ الاستدلالات. فمع شعار «اللّه أراد ذلك»، اندفعت أوروبا باتجاه الشرق في حقبة الحروب الصليبيّة. في السياق نفسه، دمّر شعار «دكتاتوريّة البوليتاريا» روسيا. إلى ذلك، تسبّب شعار «ألمانيا تدفع» في تبذيرٍ ماليٍّ سُحِقْنا تحت وطأته.

لا يؤثّر المصلحون في النّفوس إلّا بسبب امتلاكهم شعارات صوفيّة محمَّلة بالآمال تكون بمثابة سندٍ لهم.

على المقلب الآخر، تختفي قوّةُ الشعارات السياسيّة الشعبيّة، بصفة عامّة، عندما تَتَحَقّق. فبعد أن حرّض الثوّار على الكثير من الثورات بغية الحصول على الاقتراع العام، تخلّوا عنه في دول مختلفة شيئًا شيئًا وأحلّوا محلّه أشكالًا مختلفة للديكاتوريّة، وخير مثال على ذلك: الفاشيّون في إيطاليا، والشيوعيّون في روسيا، والنقابيّون في فرنسا، إلخ.

وبعد، يعود تأسيسُ حزبٍ سياسيّ، بصفة عامّة، إلى إضفاء أسماء جديدة على أشياءَ قديمة للغاية.

لا تملك الحقائق المخبَّأة تحت الشعارات، في الغالب، أيّ علاقة مع تلك الشعارات. فعندما تُطالِب إحدى الحكومات، على سبيل المثال، بتحرير المضائق المفضية إلى القسطنطينيّة، فهذا يعني أنّها تريد التسيّد على هذه المضائق كي تمنع، عندما تقتضي الحاجة، منافسيها من الدخول إليها.

من بين ألف رجل يُردّدون بحماسة شعارًا سياسيًّا، الذي هم على أهبة الاستعداد للتضحية بأنفسهم من أجله، بالكاد نعثر، في الغالب، على رجل واحد قادر على تعريف معنى هذا الشعار بدقّة.

5 ـ أخطاء السيكولوجيا في السياسة

تتأتّى الفوضى التي وُرِّطت فيها أوروبا من تتابع الأخطاء السيكولوجيّة، وذلك بالمقدار نفسه الذي تأتّت فيه من الاضطرابات الاقتصاديّة التي خلقتها الحرب.

لم يَكُنِ المنطق الذي يقود العالَم ذا علاقة مع المنطق الكُتُبيّ. لذا سيكون من الخطر بالنسبة إلى أيّ بلد أن يرأسه رجالٌ كوّنَت شخصيّتَهم الكتبُ وحسب.

انطوت الأخطاء السياسيّة، في الأزمنة الحديثة، على عواقبَ وخيمة. فالإنكليز أضاعوا مصر، وبلاد ما بين النهرين، وبلاد فارس، ورأَوْا قوّتهم عرضةً للتهديد في الهند، لأنّهم رغبوا في إزالة تركيا من أوروبا، التي تُعتَبر مركز الإيمان بالنّسبة إلى كلّ المسلمين.

الواقع أنّ تجاهل الحوادث الممكنة، لكن غير المحتملة، هو على الدوام تصرّف طائش. وعليه، يُظهر تدخّل أميركا، وخيانة روسيا، وهزيمة ألمانيا بعد عدد كبير من الانتصارات، فضلًا عن حوادثَ أخرى شهدتها الحرب الأخيرة، مرّة جديدة، دورَ ما هو غير محتمل في التاريخ.

ففي أيّ برلمان أو في أيّ هيئة تشريعيّة، الحزب الذي يحكم ليس هو الحزب الأكثر عددًا بل الحزب الأعنف. لقد هيمنت على برلماننا لمدّة عشرين عامًا أقليّة اشتراكيّة.

على الرغم من الأوهام الاشتراكيّة، يُمكننا القول بأنّ العمل الجماعيّ يتطلّب مهارات أعلى كلّما كان جماعيًّا أكثر. ولذلك تحتاج حقبتنا إلى قادة أكثر بكثير ممّا يتوفّر لها. قال الصناعيّ الشهير هوجو ستينس Hugo Stinnes، بشأن هذا الموضوع: إنّه «إذا استمرّ هذا التقهقر في الفردانيّة، فلن يكون أيّ تقدّم ممكنًا».

يكفي أن يُلاحظ الاشتراكيّون، كي ينزعوا عنهم أوهامهم المتعلّقة بمزايا الإدارة الدولانيّة، أنّه في بعض المؤسسات التي تُديرها الدولة، مثل

مكاتب البريد، تُمثِّل مصاريف الموظّفين 78 بالمئة من إجمالي مصاريف التشغيل. فما من صناعة ولا تجارة يُمكن أن تستمرّ في ظلّ ظروف مشابهة.

في الأوقات العصيبة، لا تنطوي المشكلات الكبرى، التي تنبثق في كلّ يوم، البتّة على حلول بسيطة وفوريّة. والحال أنّ اتّباع رأي الجماهير الساذج من شأنه أن يقود سريعًا إلى المآسي.

الحقّ أنّ الدوافع خطيرة دائمًا، ذلك بأنّ الحقائق تفلت باستمرار من الإنسان الذي يتصرّف من دون تفكير. والكائنات القادرة على التفكير، لكن المحرومة من الإرادة، هي أيضًا مؤذية ذلك بأنّ تردّدها يشلّها أمام الوقائع التي تتطلّب قرارًا مباشرًا.

في السياسة، تملك تبعات فعل ما أهميّة أكبر من هذا الفعل نفسه.

الواقع أنّه سيُتَجَنَّب عدد كبير من المآسي في اليوم ـ على الأرجح ما زال بعيدًا ـ الذي ستمتلك فيه الحكومات ترمومترًا سيكولوجيًّا قادرًا على تعليمهم متى يجب أن يُقاوموا، ومتى يجب أن يستسلموا. فتشارلز

الأوّل[1] أُعدِم لأنّه قاوم كثيرًا، في حين أنّ لويس السادس عشر[2] أُعدِم لأنّه استسلم كثيرًا.

---

(1) تشارلز الأول (Charles I) (1649 ـ 1600)، هو ملك إنگلترا، وإسكتلندا، وإيرلندا (1625 ـ 1649 م)، وابن الملك السابق جيمس الأول ستيوارت. دفعه وزراؤه، بكنعهام وسترافورد وكذا الأسقف لود وزوجته هُنرييت، إلى الاستبداد بالحكم، مما جعل المعارضة في البرلمان تنتفض عليه. حلّ البرلمان عام 1629 عندما طالبه بأن يلتزم بتوقيع وثيقة تضمن المزيد من الحريات والحقوق. حاول الملك أن يحكم بمفرده (الفترة: 1629 ـ 1640 م)، إلا أن انتفاضة الإسكتلنديين أجبرته أن يستدعِيَ البرلمان من جديد (1640 م)، فقد كان في حاجة إلى الأموال لتجهيز قواته. انتهز البرلمانيون الفرصة فأطاحوا برأسي كل من سترافورد وأسقف لود. لم يحرك الملك ساكنًا أمام مقتل رجاله المقربين، وكتم حقده في نفسه، وفي المقابل لاقى انحياز الملك للأطراف الكاثوليكية وكذا محاولته للانفراد بالحكم استهجانًا كبيرًا لدى البرلمانيين. اندلعت الحرب الأهلية بين أنصار الملك من جهة وجيش البرلمانيين والإسكتلنديين (حلفائهم الجدد) من جهة أخرى. في نفس السنة 1645 م منيت القوات الملكية بهزيمة في نيزبي. وجد تشارلز نفسه معزولًا فسلّم في العام التالي (1646) نفسه للإسكتلنديين، والذي سلموه بدورهم إلى البرلمانيين. استطاع الفرار سنة 1647، لتندلع الحرب الأهلية مرة ثانية، كان الملك قد أقام تحالفًا جديدًا مع الإسكتلنديين، في مقابل إعطائهم بعض الحريات الدينية، إلا أن قائد الثوار أوليفر كرومول استطاع أن يحسم الموقف بصورة نهائية هذه المرة عام 1648. عقد الأخير جلسة خاصة للبرلمان، بعد أن انتُقِيَ أعضاؤه من بين أنصار الثوريين، أُصدِر حكم بإعدام الملك، لتُضرب عنقه في وايتهل، بالقرب من وستمنستر عام 1649. انظر ويكيبيديا. (المترجم)

(2) الملك لويس السادس عشر (1793 ـ 1754): (بالفرنسية: Louis XVI) ملك فرنسا ونافارا، آخر ملوك فرنسا قبل الثورة الفرنسية، في عهده قامت الثورة الفرنسية وأدت إلى إطاحة الحكم المطلق. أعدم بالمقصلة بعد أن اقتيد إليها وهو في كامِل أبهته كملك وزوجته ماري أنطوانيت وبكل مظاهر الاحترام وضعوه في عربته المذهّبة وداروا به في باريس بين شعبه الذي لم يُحسن التعامل معه. وحينما أعدم لويس السادس عشر بالمقصلة ونزل الدم إلى الأرض ركض الحشد نحو دمه ليغمسوا فيه مناديلهم بسبب كرههم له. انظر ويكيبيديا. (المترجم)

وبعد، بإمكانِ توغّلٍ سيكولوجيٍّ عميق وحده أن يتوقّع ردود فعل نفس الشّعوب الرازحة تحت وطأة تأثيرات مختلفة. وعليه، ما كان الألمان ليُثيروا غضب أميركا، ويخسروا الحرب، لو امتلك قادتهم توغّلًا كهذا.

يكمن أحد أكثر مصادر الأخطاء السياسيّة تكرّرًا في عَزْوِ حوادث متأتية من أسباب كثيرة ومعقّدة إلى أسباب بعينها.

إلى ذلك، سمحت سلسلة الأخطاء السيكولوجيّة التي ارتكَبَها الحلفاءُ لألمانيا بالحصول عل هاتين النتيجتين الكبيرتين: تفكيك الوفاق،[1] والجعل من دفع التعويضات المترتبة عليها تجاه الدول المنتصرة أمرًا مستحيلًا وذلك نتيجة تخفيضها سعر عملتها.

تكمن قوّة النمسا الحقيقيّة في التطلّعات المتناقضة للأعراق المختلفة التي تكوّنها. بعبارة أخرى، أُسّست الإمبراطوريّة الكبيرة هذه على توازن الكراهيات.

مهما بلغ ذكاء رجل الدولة، فإنّه يسعى، عند وصوله إلى السلطة، إلى اتباع رأي الجماهير المُتقلِّب كي يجعل من نفسه شخصيّة شعبيّة. على الرغم من ذلك، غالبًا ما يفقد السّلطة.

يُشكِّل الخوف من تحمّل المسؤوليّات، والخشية من الناخبين، والانشغال الحصريّ بالوقت الراهن، بالنسبة إلى أيّ رجل سياسة حديث، ثلاثة مصادر للخطإ يصعب عليه التخلّص منها.

(1) الوفاق الثلاثي أو دول الوفاق كان اتحادًا عسكريًّا بين بريطانيا وفرنسا وروسيا. أُسس عام 1904 من خلال معاهدة سانت بطرسبرغ. انظر ويكيبيديا. (المترجم)

حقيقة الأمر أنّ التّدخلات الدولانيّة،[1] التي تُخِلّ بلعبة قوانين الطبيعة، زاخرةٌ بالتداعيات اللا مرئيّة التي تُعرقل حياة أيّ بلد. في هذا السياق، تُشكّل الضريبة التي فُرِضت على القمح في خلال الحرب مثالًا صارخًا على ذلك. لقد تخلّى المزارعون، على الفور، عن زراعتهم، ووجب على الحكومة أن تحصل على القمح الضروريّ، من الخارج، بتكلفة عالية، قبل أن تعمد إلى إلغاء الضريبة.

الحقّ أنّ الحكومة الفوضويّة هي النهاية الضروريّة لأيّ حكومة ضعيفة، أضف إلى ذلك أنّه سرعان ما تعقبها حكومة استبداديّة.

النزاهة في السياسة أمرٌ مستحيل، ذلك بأنّ الإنسان النزيه سيجد مباشرة الأحزاب جميعها ضدّه، بما في ذلك الحزب الذي ينتمي إليه.

في النظام الديمقراطيّ، القادة هم في الغالب أكثر استعدادًا للخضوع منه للقيادة. لذا ينتهي الأمر بهم بأن يفقدوا كلّ مكانة.

علاوة على ذلك، يعني الاتباع الدائم لرأي الجماهير المتحرِّك، الاستسلام لعدم توقّع أي شيء، وعدم منع أيّ شيء، وعدم القدرة على أيّ شيء.

في السياسة، كما في الزراعة، نحن نحصد ما زرعناه. يأخذ الإنكليز على الفرنسيّين تشجيعهم تركيا، متناسين المتاعب التي سبّبوها لها على امتداد أربعين عامًا في كلّ مكان تقريبًا.

---

(1) دولانيّ Étatiste: متعلّق بالدولانيّة، والدولانيّة Étatisme نظريّة سياسيّة تدعو إلى مدّ سلطة الدولة وصلاحيّتها على الحياة الاقتصاديّة والاجتماعيّة قاطبة. (المترجم)

وبعد، يُمكن الأخطاء السياسيّة أن تتسبّب، عن طريق العدوى الذهنيّة، بجائحات مُدمِّرة. فالعدوى البلشفيّة أبادت أُناسًا أكثر ممّا أبادته المعارك، وأعادت روسيا إلى الحقبات ما قبل التاريخيّة البدئيّة.

بوجيز العبارة، رجل الدولة الذي لا يعرف كيف يُوجِّه الحوادث، سرعان ما تَستحوذ عليه.

على الرغم من أنّ السياسة هي بكلّ تأكيد الفنّ الذي تتطلّب ممارسته أكبر قدر من الحكم، فإنّه الفنّ الذي يُنفق فيه أقلّ قدر ممكن.

خلاصة القول، تنطوي الترسانة السيكولوجيّة على أسلحة إذا استُعمِلت جيّدًا، فبإمكانها أن تتخطّى قوّة المدافع. يتطلّب هذا الاستعمال، الذي لا تُعلّمه الكتب، خبرة طويلة.

الفصل الثّاني

الحروب، والثورات، ونزع السلاح

1 ـ الأسباب المستقبليّة للحرب والانتقام الألمانيّ

لم تحمل الحروب القديمة المتأتية، بخاصّة، من طموح الحكّام الشخصيّ، طابَع الضرورة على الإطلاق. أمّا النزاعات الحديثة النّاجمة عن صراعات المصالح الجماعيّة، فمن الصعب جدًّا تفاديها. بعبارة أوضح، كان بإمكان الإسكندر ويوليوس قيصر عدم القيام بغزواتهما. في أيّامنا هذه، يُمكن القول بأنّ إرادة الإمبراطور الألمانيّ كانت ستغدو، عاجلًا أو آجلًا، عاجزة عن الهيمنة على تطلعات شعب مسكون برغبة صوفيّة في السيطرة.

وبعد، تُظهر الزيادات في الأراضي التي استولت عليها إنكلترا حديثًا إلى أيّ حدّ تبقى فكرة التوسّع عن طريق الغزوات مفهومًا من المفاهيم الموجِّهة لبعض الشعوب.

من السهل على المنتصِر، في ساعة النّصر، أن يفرض إرادته. تتناقص هذه الإمكانيّة تدريجيًّا وصولًا إلى اليوم الذي يعود بالإمكان تدمير مقاومة المهزوم إلّا عن طريق القوّة، من هنا يغدو نشوب حرب جديدة أمرًا ضروريًّا.

الواقع أنّ الشّعوب لا تستسلم أبدًا للهزيمة عندما تخال نفسها متفوّقة على المنتصرين عليها. وعليه، يُمكن أن تُعتبَر محاولة الانتقام الألمانيّ بمثابة حدثًا من أكثر الحوادث وثوقًا في التاريخ المستقبليّ.

كَمَنَ مثال الإمبراطور غليوم، من خلال مذكّراته، في الحصول على جيش وأسطولٍ قويّين بما يكفي لكي لا يجرؤ أحد على مهاجمتهما. لكنّه تناسى آنذاك أنّ أستاذَ وسائلِ دفاعٍ كهذه فكّر سريعًا في استعمالها من أجل التخلّص من منافسين مزعجين. الحقّ أنّ مفهوم قوّته هو الذي قاده إلى الحرب.

ثمّة شكلان من أشكال الانتقام حلمت بهما ألمانيا: 1 ـ عن طريق الأسلحة، 2 ـ عن طريق التوسّع التجاريّ. من شأن النجاح في المسعى الثاني أن يُفضي حتمًا إلى تحقيق المسعى الأوّل.

بعيدًا من الأسلحة المذهلة، إنّ الوسيلة الوحيدة التي كان من شأنها أن تمنع ألمانيا من القيام باعتداء مستقبليّ هي عودتها إلى الأقاليم المستقلّة التي كُوِّنت منها قبل العام 1871. الواقع أنّ ألمانيا نفسها طالبت بهذه العودة بعد الهدنة، كي تتخلّص من الهيمنة البروسيّة. سوف يُذهل المؤرّخون حتمًا من كون واضعي معاهدة السلام لم يفهموا بداهةً كهذه.

يمتلك عدد كبير من الظواهر الاجتماعيّة نقطة حرجة[1] Point Critique شبيهة بالنقطة الحرجة الخاصّة ببعض الظواهر الفيزيائيّة. يُمكن

(1) النقطة الحرجة حسب المفهوم العلمي في الكيمياء الفيزيائية، والتحريك الحراري، وفيزياء المواد المكثفة، هي النقطة من الضغط ودرجة الحرارة التي لا يوجد فيها فواصل واضحة بين حالات المادة (مثل فواصل بين الحالة السائلة، والحالة الصلبة، أو الحالة الغازية). انظر ويكيبيديا. (المترجم)

لتأثيرات ضعيفة في محيطها أن تُحدِّد تغيّرات كبيرة جدًّا، مثل السلام والحرب. يُثبت أصل حربَيْ 1870 و1914 هذه الملاحظة.

كشف النزاع العالميّ عن مبدأين اثنين لم تسمح الحروب السّابقة بتوقّعهما: المبدأ الأوّل، ومفاده أنّ المنتصِر يُلفي نفسه مُدمَّرًا كما المهزوم. المبدأ الثاني، مفاده أنّ التعويضات التي يتحمّلها المهزوم تدفعها الشّعوب الأخرى بطريقة غير مباشرة، بما في ذلك الشعوب التي لم تُشارك على الإطلاق في النزاع.

يُمكن الرأسمال الماديّ لأيّ شعب أن يُدمَّر في أيّ حرب. أمّا الرأسمال الأخلاقيّ، المكوَّن من الذكاء، وسلطة التنظيم، والكفاءة التقنيّة، بما هي غير قابلة للتدمير، فيسمح بإعادة تكوين الرأسمال الماديّ سريعًا. تزوّدنا ألمانيا بمثال جديد على صحّة ما نقول.

سوف يتوقّف تاريخ أوروبا القادم، قبل كلّ شيء، على مصلحة الأمم الكبرى، خلال فترة السلام، في إطالة أمد التحالفات التي كوّنتها خلال الحرب.

من الواضح تمامًا أنّه إذا وافقت ثلاث دول كبرى مثل فرنسا، وإنكلترا، وأميركا، على أن تتوحّد ضدّ أيّ معتدٍ، فإنّ السّلام سيُلفى مؤكَّدًا. الواقع أنّ تباعد المصالح واختلاف ذهنيّة تلك الأمم، وانعدام الثقة المتبادل بين حكوماتها، كلّ ذلك منع هذا التحالف من التحقّق. يبدو أنّه محكوم على الشعوب أن تُبيد بعضها بعضًا عن طريق النزاعات المسلَّحة. إذا أمكن العقل أن يُمارس دورًا ما في العلاقات بين الشّعوب، فإنّ هذه الأخيرة ستقتنع سريعًا بأنّ مصلحتها هي في أن تُساعد بعضها بعضًا عوضًا عن أن تُدمِّر بعضها بعضًا.

2 ـ الصراعات من أجل السيطرة

تختلف التبعات الحقيقيّة للحرب العالميّة كثيرًا عن النتائج المتوقعة. أدركت بعض الشّعوب الآن أنّه ينبغي لها، بعد أن استبعدت السيطرة العسكريّة الألمانيّة نتيجة بذلها جهودًا جبّارة، أن تتحمّل سيطرة إنكلترا الاقتصاديّة والسياسيّة. الحقّ أنّ السيطرة الأخيرة هذه ليست أقلّ وطأة من السيطرة الاقتصاديّة.

وبعد، ليس ثمّة ما يوازي السيطرة الإنكليزيّة اليوم سوى القوّة المتنامية للولايات المتّحدة.

من بين الإشارات المختلفة التي تكشف عن التطلّع إلى السيطرة، تبرز لغة الدبلوماسيّين. استولت إنكلترا على الأساطيل والمستعمرات الألمانيّة، وأعلنت من ثَمّ وصايتها على بلاد فارس ومصر. لكن عندما أراد الحلفاء الدفاع عن حقوقهم، غَدَتْ لغةُ القادة الإنكليز عنيفة. عندئذ فهم العالَم أنّ سيطرة جديدة قد وُلِدَت.

لكن في اليوم الذي أثبتت فيه التجربة أنّ أميركا قادرة، على الرغم من الأساطيل والغواصات، على إرسال مليون رجل مُسلَّح إلى أوروبا، تغيّرَت وضعية إنكلترا العالميّة، ولو ضمنيًّا. حقيقة الأمر أنّ الهيمنة على البحار، والتفوّق التجاري سَيَفْلتان حتمًا من قبضتها، في المستقبل، لصالح أميركا.

وعليه، إذا قُدِّر لإنكلترا أن تنجح عن طريق مساعيها المتكرّرة، في منع فرنسا من المطالبة بالتعويضات المستحقّة على ألمانيا، فذلك لأنّها انتزعت من الحرب هاتين النتيجتين الكبيرتين: 1 ـ التخلّص من المنافسة البحريّة الألمانيّة، 2 ـ القضاء على المنافسة التجاريّة المحتملة التي قد

تنهض بها فرنسا، لأنّ هذه الأخيرة أُرغمت على تخصيص كلّ مواردها من أجل ترميم المقاطعات المهدَّمة.

كابدت ألمانيا، عندما حَلَمت بسلام عالميّ من خلال إرساء سيطرتها، وهمًا سيكولوجيًّا وقع ضحيّته كلّ الغزاة الكبار. أدّى نجاحها حتمًا إلى سلسلة من التحالفات التي دمّرت قوّتها، تمامًا كما حصل مع سلسلة التحالفات التي قام بها نابليون.

الواقع أنّ المنافسة الكبيرة بين إنكلترا وألمانيا انتهت بالسيطرة الإنكليزيّة على أوروبا. أمّا الصراع من أجل السيطرة على آسيا فقد بدأ للتوّ.

الأهميّة المعطاة لليابان في خلال الحرب، وغزوها السريع للمحيط الهادئ، سيُسرّعان حتمًا في حدوث الصدمة الهائلة بين العرق الأبيض والعرق الأصفر. الحقيقة أنّ نتائج النزاع هي التي ستُحدِّد إلى أيِّ أيدٍ سينتقل شبحُ آسيا.

يُدافع رجال الدولة الحاليين عن أنفسهم جهارًا ضدّ نعتهم بتبنّي أيّ فكرة إمبرياليّة، ويتظاهرون بأنّهم يعتبرون أيّ اتهام من هذا القبيل بمثابة إهانة. بيد أنّهم يعلمون جيّدًا أنّ التوجّهات الإمبرياليّة هي التي شيّدت وحدها الإمبراطوريّات الكبرى، هذه الإمبراطوريّات التي شكّلت أوروبا، وجعلتها تزدهر.

وبعد، انتهى اليوم الفعلَ الأوّل للحرب العالميّة، ونعني الصراع العسكريّ. وبدأ الفعل الثاني، أي الحرب الاقتصاديّة. أمّا الفعل الثالث، أي صراع العرق الأصفر ضدّ العرق الأبيض من أجل السيطرة على آسيا، فيبدو قريبًا للغاية.

خلاصة القول، إذا لم يتوصّل مفهوم التّرابط بين الشّعوب إلى أن يحلّ محلّ السيطرة، فسوف تُعاني أوروبا من حروب إبادة كفيلة بأن تُغرقها في انحطاط لا يعرف أيّ رَجاء.

3 ـ الأوهام المتعلّقة بإمكانيّة نزع السّلاح

على امتداد العصور التاريخيّة، واليوم أكثر من أيّ وقت مضى، يتعلّق الاحترام الذي يوحي به أيّ شعب بمكانته العسكريّة.

الحقّ أنّ الأمم الحديثة عانت كثيرًا من جرّاء هذه المعضلة. لقد أَلِفَت نفسها أمام خيارين: إمّا التخلّي عن تسلّحها من أجل تفادي انهيار ماليّ، وإمّا زيادة تسلّحها من أجل تجنّب غزوات أكثر كلفة أيضًا.

لا يُمكن أيّ شعب أن يحمِيَ نفسَه ضدّ هجمات منافِسِيه إلّا إذا ظَلّ قويًّا. وعليه، لو لم تُضعِفِ الأفكارُ السلميّة التي نشرها الاشتراكيّون قبل الحرب استعدادنا العسكريّ بشكل ملحوظ، لَمَا فكّرت ألمانيا على الإطلاق في مهاجمتنا.

في هذا السياق، كتب غليوم الثاني في **مذكراته** بحثًا حقيقيًّا عن الحرب والسلم في سطرين اثنين عندما قال بأنّه ينبغي لأيّ شعب أن يتسلّح بما فيه الكفاية برًّا وبحرًا كي يخلق لدى خصمه الخوف من المغامرة.

في الواقع، إذا كنّا لا نسمح لأنفسنا قطّ بمهاجمة الأقوياء، فإنّ الضعفاء يبقون مهدّدين على الدوام.

لا يُمكن الحروب أن تختفي إلّا بعد القضاء على الأسباب التي تُولِّدها: كراهية بين الأعراق، حاجة الشّعوب القويّة إلى السيطرة، المنافسات

الاقتصاديّة، إلخ. ينبغي للعلم، بادئ ذي بدء، أن يكتشف وسيلة تُحوِّل طبيعة الإنسان برمّتها.

منذ فجر التاريخ، كانت العلاقات بين الشّعوب الضعيفة والشعوب القويّة أشبه ما تكون بعلاقة الفريسة مع الصيّاد.

صحيح أنّ الأمر ينتهي في بعض الأحيان إلى هيمنة الفكرة على المدفع، بيد أنّ الفكرة التي تفتقر إلى حماية المدفع تبقى على الدوام من دون قوّة.

يدعم الفلاسفة الفكرة القائلة بأنّ النزعة الإنسانيّة قد تتسبّب في خسائر أكثر مما تتسبّب فيه الأوبئة، وأنّ المدافع تكون محقّة إذا لم تُمارس مواعظ محبّي الإنسانيّة أيّ تأثير على الإطلاق في سلوك الشّعوب. الواقع أنّ المواعظ هذه لا تصلح إلّا لتزيين الخطب.

أحبّوا بعضكم بعضًا، تنصحنا الأديان من دون طائل، تقبّلوا بعضكم بعضًا، ذلكم ما تطلبه منّا القوانين ببساطة. ساعدوا بعضكم بعضًا، ذلكم ما سيغدو شعار المستقبل عندما ستكتشف الشّعوبُ أنّ الاعتماد المتبادل هو الذي يربطها بعضها ببعض.

في ظلّ اختلال العالَم الحاليّ، يُمكن القول بأنّ مصطلح نزع السلاح مُرادِفٌ للعبوديّة.

4 ـ الارتيابات حول أصول الحرب

ليس من السّهل دائمًا معرفة مسبّبي الحرب الحقيقيّين. لقد وجب انتظار وقت طويل من أجل الاعتراف بأنّ ملك بروسيا، والإمبراطور الفرنسيّ خاضا الحرب، في العام 1870، رغمًا عنهما.

وبعد، يتعذّر فهم أصول الحرب العالميّة عندما نخال أنّها نجمت عن إرادة ثلاثة أباطرة أمروا بها. الحقّ أنّه ينبغي النّظر إليها على أنّها النتيجة الحتميّة ليس لتاريخ الدّول الأوروبيّة منذ قرنٍ وحسب، بل كذلك لتعليم المؤرّخين والجامعات الألمانيّة منذ خمسين عامًا.

لا تُعوزنا المستندات كي نكتب اليوم تاريخ الحرب وأسبابها، لكن ما يُعوزنا هو صفاء الحكم الذي يسمح لنا بدراسته كما لو كان يتعلّق بحوادث قديمة، مثل الحروب البونيقيّة[1] أو معركة أكتيوم.[2]

وعليه، كان من المحتمَل ألّا يُعلن الإمبراطور الألماني في العام 1914 الحرب، لو أنّ إنكلترا أعربت مُبكرًا عن نيّتها في الانضمام إلى فرنسا، لكن بالنّظر إلى الحالة الروحيّة التي خلقها العسكريّون والجامعيّون الألمان، بدا، ببساطة، أنّ النزاع تأخّر.

---

(1) الحروب البونيقية أو الحروب الفونية أو الحروب البونية مصطلحات على اختلافها تدل على مدلول واحد ألا وهو الحروب الثلاثة التي دارت بين روما وقرطاج. وهي تعرف باسم البونية لأن اللفظ اللاتيني لكلمة قرطاجي كان بونيقي Punici. كان السبب الرئيسي للحروب البونية هو تصادم المصالح بين الإمبراطوريتين القرطاجية والرومانية الآخذتان في التوسع. اهتم الرومان في البداية بالتوسع في صقلية، والتي كانت تقع تحت سيطرة القرطاجيين. في بداية الحرب البونية الأولى كانت قرطاج هي القوة المهيمنة على البحر المتوسط بإمبراطورية بحرية متوسعة، في حين أنّ قوة روما كانت آخذة في الاستيلاء السريع على السلطة في إيطاليا. بحلول نهاية الحرب البونية الثالثة، وبعد مقتل مئات الآلاف من جنود الجانبين، استولى الرومان على إمبراطورية قرطاج وهدموا المدينة، لتصبح الإمبراطورية الرومانية أقوى دولة في غرب البحر الأبيض المتوسط. انظر: ويكيبيديا. (المترجم)

(2) معركة أكتيوم: كانت معركة حاسمة في آخر حروب الجمهورية الرومانية. وكانت بين جيوش أوكتافيوس وجيوش ماركوس أنطونيوس وكليوباترا السابعة ملكة مصر. وقعت هذه المعركة البحرية في 2 أيلول العام 31 ق. م.، وكانت ساحة القتال البحر الأيوني، قرب المستعمرة الرومانية أكتيوم في اليونان. انظر ويكيبيديا. (المترجم)

حقيقة الأمر أنّ الحروب الفرنسيّة ـ الألمانيّة لا يُمكن أن تُفهَم إلّا إذا نُظر إليها بوصفها مراحل متتابعة ضمن سياق نزاع قَرنيّ [1] لم تتّضح معالم نهايته بعد.

يبدو لنا سريعًا، عندما نبحث عن الأصول البعيدة للحرب الأخيرة، أنّ الصراع المُسَلَّح بين السيطرة الألمانيّة والسيطرة الإنكليزيّة كان صراعًا فتّاكًا، تمامًا كما كانت عليه الحال، قديمًا، في الصراع بين روما وقرطاج.

5 ـ أسباب الثورات

تحيا الشّعوب، بصفة خاصّة، على الآمال. وتهدف ثوراتها إلى استبدال آمالٍ جديدة بأخرى قديمة غدت من دون قوّة.

يُصبِح أيّ بلدٍ عرضةً للثورات منذ اللحظة التي تغدو فيها الأحزاب التي تملك مصلحةً في الدفاع عن النظام القائم أقلّ قوّة وفعاليّة من الأحزاب التي تتطلّع إلى تدميره.

تكمن النتيجة الرئيسة للثورات، التي تقلب التاريخ رأسًا على عقب، في تغيير القادة الذين يُجسّدون مبدأ السلطة. نادرًا ما تستفيد الجماهير من هذا التبديل.

بعبارة أوضح، عندما تتعارض الضرورة الاقتصاديّة مع الدوافع الانفعاليّة والصوفيّة التي تقود النّاس، تغدو الثورة حتميّة.

الحسد وصديقته الكراهية التي لا تنفصل عنه، يُشكّلان الدوافع الكبرى

(1) قرنيّ Séculaire: يحدث مرّة كلّ قرن. (المترجم)

للثورات الاجتماعيّة. بهذا المعنى، يعود السّبب الأساسيّ للثورة الفرنسيّة إلى الخلافات الخارجيّة، وإلى الامتيازات التي فصلت الطبقة البرجوازيّة عن طبقة النبلاء. الواقع أنّ الثورة الاجتماعيّة، التي تتهدّدنا، ستضمّ بين جذورها الفروقات الموجودة، ليس في القوانين، بل في الأخلاق، بين مختلف الطبقات.

عندما تحلّ الكراهية لدى الأدنى محلّ احترام من هو أعلى، تغدو الثورة قريبة.

تُمثِّل البلشفيّة حالة ذهنيّة سادت مرّاتٍ كثيرة في التاريخ. طالما كانت عناصرها السيكولوجيّة هي نفسها: عدم الانضباط، والحقد الغيور على التفوّق، والرغبة الملحّة في السيطرة، عن طريق العنف، على الخيرات التي لا تستطيع أن تحصل عليها عبر العمل أو الذكاء.

تجرّ الحضارات الحديثة خلفها حشدًا متناميًا من غير المـُتكيّفين الذين يحلمون بتدميرها بغية أن يُحِلّوا محلّها أشكالَ حياةٍ اجتماعيّة أقلّ تعقيدًا، مثل الشيوعيّة.

الحقّ أنّ جيش غير المتكيّفين غدا مصدر تهديد اليوم، تمامًا كما ستغدو عليه الغزوات الألمانيّة المستقبليّة.

تكمنُ واحدة من أكبر المشكلات الحديثة في معرفة ما كان إذا البلشفيّون الذين لا يملكون أيّ ثقافة ـ أو ما هو أكثر خطورة أيضًا، ونعني أن يتزوّدوا بنصف ثقافة ـ سينجحون في إعادة حضاراتنا العظيمة إلى أنماط دونيّة شبيهة بالبربريّة.

تُحدِّد ذهنيّة أيّ شعب، بدقّة، مؤسّساته وقوانينه. يبدو أنّه محكوم

على بعض الأمم، من جرّاء روحها نفسها، بألّا تخرج من الثورات ومن الفوضى، مثل إيرلندا في أوروبا، والجمهوريّات اللاتينيّة في أميركا.

نجحت الثورة الفرنسيّة، التي قامت بها الطبقة البرجوازيّة ضدّ طبقة النّبلاء، لأنّ قدرات البرجوازيّة هذه تفوّقت على قدرات النبلاء. في أيّامنا هذه، يُمكن الثورةُ البروليتاريّة أن تنتصر مؤقّتًا، بفضل قوّة العدد، لكنّها لن تستمرّ أبدًا لأنّ التطوّر الصناعيّ يتطلّب مهارات توجيهيّة لا يمتلكها العامِل.

إلى ذلك، يستطيع حزبٌ ثوريّ يتمتّع بهيبة أن يضمّ بسهولة إلى صفوفه المستائين من كلّ الأحزاب الأخرى. لقد جنَّد البلشفيّون أتباعًا لهم في بلاد فارس وتركيا، على الرغم من عدم وجود أيّ شيء مشترك بين الإسلام والشيوعيّة.

6 ـ نتائج الثورات

تُخَصَّص المرحلة الأولى من الثورة لمواجهة الضرورات الاقتصاديّة والاجتماعيّة التي تُنَظِّم حياة الشّعوب. لكن سرعان ما تُثبت التّجربة أنّ الضرورات هذه تُهيمن على الإرادات، ذلك بأنّ التنظيم القديم يظهر من جديد تحت أسماء جديدة. ذلكم ما سوف تنتهي إليه، بالضرورة، الثورة الروسيّة.

لا يملك الحالمون أي قدرة خلّاقة، لكنّهم يمتلكون في بعض الأحيان قوّة تدميريّة ملحوظة. الواقع أنّ المؤسّسات التي بُنِيَت بعناء شديد عبر الزمن، تفكّكت سريعًا تحت تأثير عملهم المـُذَوِّب. وعليه، تكفي الشيوعيّين الروس بضعةُ أشهرٍ كي يعودوا ببلادهم إلى العصور البربريّة.

وبعد، يُحضِّرُ الخيالُ الخلّاق الاختراع. يثبت المختبَر الحدود. يُحوِّل المصنع هذا الاختراع إلى عناصر تقدُّم يستخدمها الناس أجمعين. تُظهِر المجزرة التي ارتكبها الشيوعيّون الروس بحقّ المفكّرين كم ظلّت نشأة هذه الاكتشافات مجهولة بالنّسبة إلى الجماهير التي استفادت منها. الحقّ أنّ البلشفيّة كشفت عن مقدار البؤس الذي يُمكن أن يقع فيه العامل المـُفْتَقِر إلى الفكر القادر على توجيه جهوده.

مهما يكن المثال الثوريّ منصِفًا، فإنّه لا ينتصر إلّا من خلال سلسلة من الحروب العنيفة. عشرون عامًا من الصراعات المميتة كانت كافية كي يترسّخ في أوروبا مبدأ المساواة أمام القانون، وكي تُلغَى الامتيازات الخاصّة ببعض الطبقات.

في الواقع، لا تستمرّ حكومة ثوريّة إلّا إذا ألفت نفسها مهدّدة بالرزوح تحت وطأة استبداد بعض القادة.

بعبارة أوضح، لا تستمرّ الثورات طويلًا لأنّها سرعان ما تصطدم بحائط الضرورات الاقتصاديّة والاجتماعيّة التي تهيمن على العالَم. وعليه، سرعان ما يتخلّى الجمهور عن المـُنَظِّرين عندما يكتشف ضعفهم. قبل الوصول إلى المرحلة الأخيرة هذه، تتراكم أنقاض كثيرة. هِيَذي روسيا تختبر هذا الأمر اليوم.

تُثري الثورات بعض القادة الذين ينجون منها، لكنّها تتسبّب، باستمرار، في زيادة بؤس الجماهير الذين يقومون بها. ما دامت هذه الحقيقة عصيّة على فهم الحشود، فسيكون بإمكان القادة الثوريّين أن يستمرّوا طويلًا في زعزعة العالَم.

يُظهر تاريخ الجمعيّات السياسيّة من كلّ الأزمنة أنّ المتعصّبين لم يكتشفوا أيّ طريقة بعد من أجل الإقناع سوى الذبح الممنهج لخصومهم.

بهذا المعنى، لم يتطلّع الكثير من الثوريّين الحديثين إلى الحريّة، بل تطلّعوا إلى العبوديّة من دون أن يعلموا. فهم لم يُدركوا الحريّة إلّا تحت شكل الخضوع إلى سيّد تُعتَبر أبسط كلماته بمثابة وحيٍ. انتهى الأمر بكلّ الثورات الحديثة إلى خلقِ مُسْتَبِدّ.

يبدو التعطّش إلى عدم المساواة حاجة غير قابلة للاختزال في الطبيعة البشريّة. نحن نعلم وفق أيّ حماسةٍ طالب أعضاءُ المؤتمر الوطني الفرنسيّ، الناجون من المقصلة، نابليون بمنحهم لقب نبلاء. الواقع أنّ الحلم المساواتيّ الذي قادهم إلى ارتكاب مجازر كثيرة لم يعدُ كونه، في الواقع، سوى رغبة عنيفة في عدم مساواةٍ تعود بالنفع عليهم. أضف إلى ذلك أنّ التاريخ لم يذكر أيّ بلد سادت فيه المساواة.

لم يُظهر أيّ بارون إقطاعيّ على الإطلاق ازدراءً للعبيد يُوازي الازدراء الذي أظهره قادة الأحزاب الثوريّة الجديدة تجاه الشعوب، ولا سيّما قادة الحزب الشيوعيّ الروسيّ. راح الدكتاتوريّون البلشفيّون، منذ وصولهم إلى السلطة، فصادروا حريّة الصحافة، وألغوا يوم العمل الذي يتألّف من ثماني ساعات، كما أُلغيَ الاقتراع العام، والعامل غدَا عبدًا بسيطًا.

لم نصادف على مرّ التاريخ ثوراتٍ لم تُفضِ، في نهاية المطاف، إلى نتائج متناقضة تمامًا مع النتائج التي سعى منظّموها إلى الوصول إليها.

الثورة البلشفيّة واحدة من الثورات التي أظهرت بصورة فُضلى كم أنّ الأهداف التي بلغتها الثورات يُمكن أن تختلف عن الأهداف المنشودة.

لقد انتصرت لأنّها وعدت بالسّلم، وسرعان ما ألفَت نفسها في حربٍ مع كلّ جيرانها. أرادت أن تأتيَ على النزعة العسكريّة، لكنّها لم تفعل شيئًا سوى تكريس نظام عسكريّ أقسى من كلّ الأنظمة السابقة. في السياق نفسه، طالبت بإلغاء حقّ الملكيّة، ولم تنجح إلّا في خلق الملكيّة الفرديّة في بلدٍ لم يكن قد عرف بعد سوى الملكيّة الجمعيّة.

بالنّظر إلى العدد الهائل من الفلاحين الروس الذين غدوا ملّاكًا، ناهيك بكونهم امتلكوا، منذ ذلك الحين، ذهنيّة خاصّة حدّدتها الملكيّة، يُمكننا التأكيد أنّ روسيا ستغدو قريبًا البلد الوحيد في العالَم الذي يضمّ أقلّ عدد من الاشتراكيّين.

إلى ذلك، لا تنجم الإصلاحات المستمرّة عن أيّ ثورة، بل تنجم عن تحوّل عميق في الأفكار.

وبعد، يُمكننا القول من خلال كلّ دروس تاريخ الثورات، بأنّ التطرّف في السياسة له نهاية ضروريّة تكمن إمّا في تدمير الحضارة التي يسود فيها، وإما إلى الفوضى والدكتاتوريّة.

ينبغي لأيّ شعب أن ينتظر سنواتٍ طويلةً كي يكتسب توازنًا مستمرًّا، ووقتًا قليلًا كي يخسره.

الفصل الثّالث

العلاقات الدوليّة والتّحالفات

1 ـ العلاقات الدوليّة

على الرّغم من أنّه ينبغي للتضامن بين الشّعوب أن يكون قانون الأزمنة الحديثة، فإنّ كراهية حادّة تُسيطر على العالَم. كراهية بين الأمم، وبين الطبقات المختلفة، وبين الأمّة نفسها، وبين الأحزاب السياسيّة التي تعود إلى كلّ طبقة. حقيقة الأمر أنّ الاتكال المتبادل بين الشّعوب ضرورة قد ينتهي بها الأمر إلى جعلها تتّحد، بيد أنّ تأثيرها حاليًّا يبقى معدومًا.

وبعد، غدا الارتياب بين الحكّام، والكراهية بين الشّعوب، الدافِعَيْن السيكولوجيّين الكبيرَيْن للسياسة الحاليّة. لقد أمكن لنا أن نُقدِّر حدّة هذه المشاعر عندما رأينا أميركا وإنكلترا يعدلانِ عن السلام المستقبليّ، ناهيك بكون وعدهما بالتّدخل في حال شنّت ألمانيا هجومًا قد أصبح أمرًا مؤكّدًا.

لو كان الأفراد يتصرّفون في علاقتهم بعضهم مع بعض بكثير من سوء النيّة ومن انعدام الثقة، مثلما تتصرّف الأمم في ما بينها، لما أمكن لأيّ مجتمع أن يستمرّ.

عُرِفَت الوَحدة بين المواطنين في الداخل، والحلفاء في الخارج، بوصفها الأساس الوحيد الممكن من أجل تشييد سلام دائم. تُثبت الكراهيات التي تتعاظم، وتنتقل من شعبٍ إلى آخر، ومن طبقة إلى أخرى، في داخل البلد نفسه، تُثبت للأسف أنّ ثمّة مصالح بديهيّة، لكنّها بعيدة، تبقى من دون فعاليّة تجاه الدوافع العاطفيّة التي تولّدها اللحظة.

الواقع أنّ الصداقة بين الأفراد يُمكن أن تستمرّ على الرغم من التباين في المصالِح. بيد أنّ الصداقة لا تُمثِّل، بين الشّعوب، إلّا تجمّع مصالح لن يُكتبَ لها الاستمرار نتيجة تبايناتها. يُحدِّد المبدأ السيكولوجيّ الجمعيّ هذا مدّة التحالف الممكنة.

يتَرَجَّح العالَم اليوم بين القوميّة الإمبرياليّة، والدولانيّة.[1] تستتبع القوميّة، مع التضامن الاجتماعيّ، عبادة الوطن. أمّا الدولانيّة، التي تحلّ محلّ التّضامن من خلال الصراع بين الطبقات، فتجعل أيّ شعب عاجزًا عن حماية نفسه في مواجهة الحروب الأهليّة، كما في مواجهة الغزوات.

تملك القوميّة، التي بمقدورها وحدها أن تمنح الشّعوب تماسكها، حظوظًا في الاستمراريّة لأنّها تُشكِّل شعورًا طبيعيًّا. لكنّ قوّة هذا الشعور نفسه تجعله يتحوّل، على الدوام، إلى إمبرياليّة عدوانيّة. الواقع أنّها تستبدل الحروب الداخليّة بالحروب الخارجيّة.

مهما كانَتِ الكراهية قويّة بين الشّعوب، فإنّها لن تبلغ مقدار الكراهية بين الأحزاب السياسيّة للشّعب نفسه.

---

(1) الدولانيّة l'internationalisme: مذهب يسمو إلى تجاوز حدود الدول، وإقامة اتّحاد بين الشّعوب والأمم. (المترجم)

سوف يُغيِّر العالَمُ وجهه، والعلاقات بين مختلف الدول ستتحوّل بعمق، عندما سيكتشف السياسيّون الذين يقودونها أنّ مصلحة أيّ أمّة لا تستند على الإطلاق إلى الضرر الذي تُلحقه بغيرها. وعليه، سوف يعدلون عن حاجتهم إلى السيطرة التي ما زالت تُعمي روح الحكّام.

في السياسة الدوليّة، من شأن الإهانات الصغيرة المتكرِّرة أن تُفضي، في نهاية المطاف، إلى استخدام قذائف المدافع.

2 ـ القوى الاقتصاديّة

ما يُحدِّد مصير الأمم، في الأزمنة الحديثة، هي القوانين الاقتصاديّة وليس إرادة الآلهة.

لو دمَّر اضطراب جيولوجيّ، منذ قرن، كلّ مناجم الفحم والبترول في العالَم، لما استتبعت هذه الحادثة أيّ تبعة هامّة. لكنْ لو قُدِّر له أن يحصل اليوم، فستتوقف سكك الحديد والمصانع عن العمل سريعًا. وسينجم عنه مباشرة تقهقرٌ في حضاراتنا. ثمّة هوّة تفصل العالَم الحاليّ عن حالته السّابقة.

الواقع أنّ الخطابات، والمؤتمرات، والقوانين نفسها عاجزة عن التّصدي للضرورات الاقتصاديّة التي تسود العالَم. ينبغي إمّا التكيّف معها وإما الفناء.

تترسّخ الحقائق العلميّة بسهولة لأنّها تتوجّه إلى الذكاء. إذا كانت الحقائق الاقتصاديّة تتجابه مع المشاعر والأوهام الاجتماعيّة، فإنّها لا تفرض نفسها إلّا بعد تجارب كارثيّة. يُشكِّل تقوّض روسيا أحدثَ مثالٍ على ذلك.

في المسائل الاقتصاديّة والاجتماعيّة، تُحدِّد المصالح الرأي والمؤسّسات التي تتأتّى منها. سوف يظلّ الإنكليز نُصَراء حريّة التّجارة، والأمريكيّون حمائيّين لها، ما داموا يجدون فائدة في المحافظة على عقائدهم.

في أيّ حرب طويلة الأمد، تأتي لحظة يكون فيها المنتصر والمهزوم كلاهما مُقَوَّضين، ذلك بأنّ التّعويضات التي ينبغي للمهزوم أن يقوم بسدادها لا يُمكنها على الإطلاق أن تُعوِّض الخسائر التي كابدها المنتصِر.

لقد رأينا بوضوح أنّ الدول التي لديها سعر صرف مرتفِع، هي الدول التي عانت من البطالة أكثر من سواها.

في الواقع، تترتّب على سعر الصّرف، بالنّسبة إلى المشترين، العواقب نفسها التي تترتّب على الارتفاع الملحوظ في سعر البضائع. فهذه البضائع سرعان ما تغدو غير قابلة للبيع، وهذا ما يترتّب عليه إقفال المصانع، وارتفاع نسبة البِطَالة.

حقيقة الأمر أنّ أيّ شعب يعيش من الاقتراض الخارجيّ يسقط حتمًا في التبعيّة للمُقْرِض المُجْبَر على مراقبة ضمانات دَينِه. بعبارة أخرى، ينتهي الأمر بكلّ أمّة غنيّة بما يكفي كي تقرض أمّة ضعيفة مالًا وفيرًا، بأن تُسيطر عليها سيطرة تامّة لا يُوفّرها لها اللجوءُ إلى الغزو العسكريّ.

وبعد، لا يكمن غنى أيّ بلد في الأوراق النقديّة التي يُمكنه أن يُصدرها متى يشاء، ومن دون ضمان، بل يكمن في صناعته، وزراعته. وألمانيا، التي لم تفقد لا حقولها، ولا مصانعها، ظلّت شبه ثريّة، تمامًا كما كانت عليه قبل الحرب، على الرغم من خسارةِ عُمْلَتها خسارة كليّة تقريبًا.

لن يكون بالإمكان إيجاد حلّ للمشكلات الماليّة الحاليّة إلّا إذا دُرِسَت على هَدي الزّمن. فبفضل دعمه، يغدو الدَّيْن الهائل دينًا صغيرًا أكثر ممّا نتمنّى. على العكس، يُمكن المبالغ الضئيلة أن تغدو مبالغ ضخمة. وحدها الجماعات قادرة على اتّخاذ تدابيرَ تستند إلى قوّة الزّمن، لأنّ حياتها غير محدودة.

يُمثِّل سعر الصّرف ببساطة درجة ثقة العالَم بالقدرة الائتمانيّة للدولة.[1] الحقّ أنّه لن يكون بإمكاننا أن نُثبِّت سعر الصّرف ما لم نُثبِّت بارومترًا أو أي وسيلة قياس أخرى. تكشف التقلّبات في سعر الصّرف، على وجه الخصوص، عن اهتزاز في الثقة.

لا يُمثِّل الإضراب من أجل زيادة الأجور صراعًا بين العمّال وأرباب العمل، بل بين العمّال والجمهور. في الواقع، الجمهور هو الذي يدفع على الدّوام زيادة السّعر التي يُحدّدها نجاح الإضراب. إذا انحاز الجمهور إلى جانب المُضربين، فذلك لأنّ الجماعات غير قادرة على تبيّن العواقب البعيدة للظواهر.

خلاصة القول، يُمكن مقارنة الطاقات اللا مرئيّة التي تقود العالَم بالكهرباء، هذه القوّة ذات الطبيعة المجهولة، التي لا تُعرَف إلّا من خلال ما تُحدثه من نتائجَ مَرْئيّة.

3 ـ معاهدات السّلام والمؤتمرات السياسيّة

سوف يُعتَرَف بأنّ الفكرة القائلة إنّه يُمكن للجماعات إيجاد حلّ للمشكلات التي استعصت على الأفراد الأكفاء، هي فكرة خاطئة، وبأنّه

(1) أي قدرة الدولة على سداد ديونها. (المترجم)

كان بالإمكان اكتشاف هذا الخطأ منذ وقت طويل، لو لم تمثّل القرارات الجماعيّة، في الغالب، قرارَ شخصيّةٍ قويّةٍ بما يكفي كي تفرض نفسها. وعليه، إنّ الحلّ، الذي من المفترض أن يكون جماعيًّا، لا يعدو كونه، في الحقيقة، قرارًا شخصيًّا.

وبعد، توجد علاقات ضعيفة بين المبادئ التي يصوغها رجال الدولة في المؤتمرات، وتلك التي تحكم سلوكهم. ففي خلال مؤتمرات السّلام، هيمنت ثلاثة مبادئ خفيّة على روح الدبلوماسيّين الإنكليز: 1 ـ زيادة الممتلكات البريطانيّة، 2 ـ منع فرنسا من أن تُصبح دولةً قويّة للغاية، 3 ـ ترك ألمانيا قويّة بما يكفي كي تُبقي على التوازن مع فرنسا.

ينبغي لنا أن نفترض قدرًا كبيرًا من سلامة النيّة لدى القادة البريطانيّين، كي نُقِرَّ بأنّهم خالوا أنفسهم وجدوا علاجًا للوضع الاقتصادي في أوروبا من خلال عقدهم المؤتمرات. بيد أنّ الهدف المتوخّى كان مختلفًا تمامًا عن الهدف المـُصرَّح به.

أدّت غالبيّة المؤتمرات، على امتداد التاريخ، إلى ظهور أسباب الحرب، ولم تنجح في منعِ أيّ حربٍ على الإطلاق.

المنفعة الوحيدة الممكنة للمؤتمر في خَلَد رجال السياسة، المؤثّرين بما فيه الكفاية كي يفرضوا إرادتهم، هي تعزيز القرارات الشّخصيّة التي يُريدونها أن تحظى بالموافقة، عن طريق سُلطة العدد.

إذا كانت صياغةُ معاهدة السّلام قد خضعت للرأي العام، ولم تُنَاقَش في السرّ، فإنّ كلّ الألمعيّة التي امتاز بها بعض الدبلوماسيّين لم تكن كافية من أجل الحصول على إقرارٍ ينصُّ على أنّ مبلغ التعويضات المستَحَقّ

لفرنسا يجب أن يُحَدَّد من قِبَل لجنة مؤلَّفة في غالبيّتها من ممثِّلي الدّول التي ليس لديها أيّ مصلحةٍ تُرجى من هذه التعويضات.

تُظهِر تبعات معاهدة السّلام، التي وضعت حدًّا للحرب العالميّة، كم كان العمى الذهنيّ لواضعيها تامًّا، إذ طردوا تركيا من أوروبا، وقسّموا النّمسا إلى دول صغيرة من دون أيّ مواردَ اقتصاديّة قادرة على انتشالها من البؤس والفوضى. أصبح واضحًا اليوم، أنّه ينبغي الحفاظ بعناية على وحدة النّمسا من أجل مصلحة أوروبا، وإعادة ألمانيا إلى مصاف الدول المنفصلة كما كانت عليه قبل أن ترزح تحت وطأة الهيمنة البروسيّة.

لم تتعرقل صياغة معاهدة فرساي بسبب تعارض المصالِح القائمة وحسب، بل تعرقلت أيضًا نتيجة الرغبة في الرّضوخ لبعض المطالب المترتبة على الاعتراف المستحقّ لإنكلترا وأميركا. لقد خِلْنا أنّ هذه الدول أتت لمساعدة فرنسا من أجل المحافظة على الحقّ والعدالة، بيد أنّ الدّول هذه تعترف اليوم بأنّها دخلَتِ الحرب من أجل الدفاع عن مصالحها المهدَّدة وحسب.

غالبًا ما تُحقِّق المؤتمرات هدفًا يتناقض تمامًا مع الهدف الذي تصبو إليه. الحقّ أنّ مؤتمر جنوى[1] لم يفعل شيئًا سوى أنّه عزّز وضعيّة

(1) مؤتمر جنوى (1922): اجتماع سريّ رسميّ ضمّ 34 دولة، وعُقِد في جنوى- إيطاليا في الفترة الممتدة من 10 نيسان إلى 19 أيّار 1922، بناء على طلب رئيس الوزراء البريطاني ديفيد لويد جورج بغية حلّ القضايا الاقتصاديّة والسياسيّة الرئيسة التي كانت تواجه أوروبا، فضلًا عن إبرام صفقة مع ألمانيا وروسيا المنبوذتين. اهتمّ المؤتمر بشكل خاصّ بتطوير استراتيجيّة لإعادة بناء ألمانيا المهزومة، والتفاوض على تطوير العلاقات بين الاقتصادات الرأسماليّة الأوروبيّة والنظام البلشفيّ الجديد في روسيا السوفييتيّة. (المترجم)

السّوفييتيّين، وتشجيع التقارب بين روسيا وألمانيا، هذا التقارب الذي يتعارض كثيرًا مع المصالح الفرنسيّة.

عندما يجتمع الدبلوماسيّون من أجل حلِّ مسألةٍ هُم على يقين من أنّهم لن يتفاهموا بشأنها، فإنّ النّقاش ينتقل مباشرة إلى التفاصيل الثانويّة بغية تجنّب الموضوع الرئيسيّ. في هذا السياق، لم تُعالَج في واشنطن مسألة التأسيس الحرّ لليابانيّين في الولايات المتّحدة، على الرّغم من استحواذ هذه المسألة على العقول جميعًا.

4 ـ معاهدات التّحالف وقيمتها

لقد غدا مُحالًا توقّعُ إلى أين سيقود أيُّ تحالفٍ، ولذلك تتردّد بعض الشّعوب الكبرى، اليوم، في إبرام أيّ تحالف. فهي لم تنسَ أنّ تحالَفَ فرنسا مع روسيا قد تَسبَّب في حرب مُدَمِّرة، وأنّ خيانة الحِلف الذي من أجله دخلنا في صراع مع ألمانيا كادت تجعلنا نخسر الحرب.

ينبغي لنا، عندما نُريد أن ندرس أصول الحرب العُظمى، العودة إلى بعيدٍ جدًّا من أجل تحديد نشأة المشاعر التي أَحيَت في ذلك الحين مختلِف البلدان. على سبيل المثال، إذا غيّرَت روسيا وجهتها، وتخلّت عن ألمانيا[1] كي تذهب نحو فرنسا، فذلك حصل، على وجه الخصوص، لأنّ

(1) إشارة هنا إلى روسيا التي ساعدت في تحرير ألمانيا بين عامي 1812 ـ 1815 في الحروب النابليونية، وبقيت العلاقات ودية بينهما بشكل عام لمدة قرن، وخاصة في عهد أوتو فون بسمارك الذي أسس تحالف الأباطرة الثلاثة في عام 1873 مع روسيا وألمانيا والنمسا والمجر. انظر ويكيبيديا. (المترجم)

بسمارك[1] منع الرّوس، بعد الحرب الروسيّة ـ التركيّة، من الاستيلاء على القسطنطينيّة.[2]

---

(1) بسمارك، أوتو إدوارد ليوبولد فون بسمارك (بالألمانية: Otto von Bismarck 1815 ـ 1898)، رجل دولة وسياسي بروسي ـ ألماني شغل منصب رئيس وزراء مملكة بروسيا بين عامي 1862 و1890، وأشرف على توحيد الولايات الألمانية وتأسيس الإمبراطورية الألمانية أو ما يسمى بـ«الرايخ الألماني الثاني»، وأصبح أول مستشار لها بعد قيامها في عام 1871، حتى عزله فيلهلم الثاني عام 1890، ولدوره الهام خلال مستشاريته للرايخ الألماني أثرت أفكاره في السياسة الداخلية والخارجية لألمانيا في نهاية القرن التاسع عشر، لذا عرف بسمارك بلقب «المستشار الحديدي». انظر ويكيبيديا. (المترجم)

(2) تستحق هذه الفكرة التوقف عندها مطوّلاً كي يستقيم فهم المعنى الذي أشار إليه لو بون. الواقع أنّ اجتماع برلين (1878) كان اجتماعًا لممثّلي القوى العظمى الست في ذلك الوقت (روسيا وبريطانيا العظمى وفرنسا والإمبراطورية النمساوية المجرية وإيطاليا وألمانيا)، والإمبراطورية العثمانية، وأربع دول بلقان (اليونان وصربيا ورومانيا والجبل الأسود). هدفَ المؤتمر إلى رسم حدود أراضي الدول في شبه جزيرة البلقان في أعقاب الحرب الروسية التركية بين عامي 1877 و1878 وانتهت بتوقيع معاهدة برلين التي حلّت محلّ معاهدة سان ستيفانو الأولية والتي جرى توقيعها قبل ثلاثة أشهر بين روسيا والإمبراطورية العثمانية. أدرك المستشار الألماني أوتو فون بسمارك، الذي تعهّد بإرساء الاستقرار في دول البلقان، بتهاوي قوّة الإمبراطورية العثمانية والمصالح المشتركة الواضحة لبريطانيا وروسيا والإمبراطورية النمساوية المجرية. في الوقت نفسه، حاول تقليص المكاسب الروسية في المنطقة ومنع ظهور بلغاريا الكبرى. نتيجةً لذلك، انحسرت الأراضي العثمانية في أوروبا انحسارًا حادًا، واعتُبِرت بلغاريا إمارةً مستقلة داخل الإمبراطورية العثمانية، واستعاد الأتراك الروملي الشرقي وخضع لإدارة خاصة وعادت منطقة مقدونيا مباشرة لحكم الأتراك، الذين وعدوا بالإصلاح.

حقّقت رومانيا الاستقلال التام، لتُضطر إلى تسليم جزء من بيسارابيا إلى روسيا، لتحصل على دبروجة الشمالية. حصلت صربيا والجبل الأسود أخيرًا على استقلالهما الكامل ولكن بمساحة أراضٍ أصغر، مع احتلال الإمبراطورية النمساوية المجرية لإقليم السنجق (راشكا). استولت الإمبراطورية النمساوية المجرية أيضًا على البوسنة والهرسك، وسيطرت بريطانيا على قبرص. حقّقت صربيا وبلغاريا واليونان

الواقع أنّ الإمبراطور غليوم ذكر هذا الأمر في مذكراته، عندما قال بأنّ «الانتقام من أجل سيدان[1] Sedan، في العام 1914، توحّد مع الانتقام من أجل ستيفانو[2] Stefano».

مكاسب، لكن الجميع حصلوا على أقل بكثير مما اعتقدوا أنهم يستحقون. عُرّضت الإمبراطورية العثمانية، التي كانت تسمّى آنذاك «رجل أوروبا المريض»، للإذلال وأُضعِفت بشدّة، مما جعلها أكثر عرضة للاضطرابات الداخلية وأضعف لتلقّي الهجوم. على الرغم من أن روسيا كانت منتصرة في الحرب التي سبقَتِ المؤتمر، فإنها عُرّضت للإهانة هناك واستاءت من المعاملة التي لاقتها. حصلت النمسا على مساحةٍ كبيرة من الأراضي، مما أغضب السلافيين الجنوبيين، وأدّى إلى عقود من التوترات في البوسنة والهرسك. أصبح بسمارك مرمّى للكراهية لدى القوميين الروس والقوميين السلافيين، وكان ليجد أنه قد ربط ألمانيا ربطًا وثيقًا بالإمبراطورية النمساوية المجرية في البلقان. انظر ويكيبيديا. (المترجم)

(1) معركة سيدان معركة وقعت خلال الحرب الفرنسية البروسية بين الجيش البروسي والجيش الفرنسي في 1 أيلول 1870. أسفرت عن إلقاء القبض على الإمبراطور نابليون الثالث، وهزيمة فرنسا. انظر ويكيبيديا. (المترجم)

(2) اندلعَتْ هذه الحرب في العام1877 ، واستمرّت حتى 1878، وانتهت بعقد معاهدة «سان ستيفانو». دارت هذه الحرب بين الدولة العثمانية وقوات التحالف الأرثوذكسي الشرقي بقيادة الإمبراطورية الروسية، بما في ذلك العديد من دول البلقان، وقد دارت رحى هذه المعركة في البلقان والقوقاز، وكان من أسبابها الأخرى تصاعد الروح القومية في القرن التاسع عشر بمنطقة البلقان، والتطلعات الروسية لاسترداد الأراضي التي خسرتها أثناء حرب «القرم» (حرب القرم: حرب قامت بين الإمبراطورية الروسية والدولة العثمانية في 4 تشرين الأوّل 1853، واستمرت حتى 1856م. ودخلت مصر وتونس وبريطانيا وفرنسا الحرب إلى جانب الدولة العثمانية في 1854م التي كان قد أصابها الضعف، ثم لحقتها مملكة سردينيا التي أصبحت فيما بعد (1861م) مملكة إيطاليا. وكان أسبابها الأطماع الإقليمية لروسيا على حساب الدولة العثمانية وخاصة في شبه جزيرة القرم التي كانت مسرح المعارك والمواجهات، وانتهت حرب القرم بتوقيع اتفاقية باريس وهزيمة الروس)، وسعيها إلى استقلال دول البلقان من الحكم العثماني الذي استمر من 1396 حتى 1878. انظر ويكيبيديا. (المترجم)

إلى ذلك يُمكن القول بأنّ حليفًا قويًّا للغاية هو كذلك عدوّ خَطِر شأنه في ذلك شأن عدوّ صريح. بعبارة أوضح، لا يُشكّل تحالف شعب ضعيف مع شعب قويّ، بصفة عامّة، بالنّسبة إلى الأوّل سوى شكل مُخَفَّف من أشكال العبوديّة.

حقيقة الأمر أنّ تحالفَ شعوبٍ كثيرة في خلال الحرب هو، بصفة عامّة، تحالف مستقرّ، لأنّ مصالحها آنذاك تكون متماثلة. على العكس، تضعف الوحدة في فترة السّلم سريعًا لأنّ المصالح القائمة سرعان ما تغدو متباعدة.

بهذا المعنى، لا يُمكن لمعاهدات التّحالف أو السّلام الدّائم أن تكون عملًا لا تشوب حسنَ نيّته شائبةٌ. الحقّ أنّ السياسيّين الذين يوقّعون عليها يعرفون التاريخ جيّدًا كي لا يتجاهلوا أنّ الاتفاقيّة التي تُبرَم بين القوى المرتبِطة بمصالحَ مشتركة تُفْسَخ حالما يختفي مجتمع المصالح الذي ولّدها.

من بين الصّعوبات التي صاحبَت صياغة معاهدة السّلام، برزت صعوبة الإلزام، إذ ألفى حكّامنا أنفسهم مجبرين على الاختيار بين وحدة مملوءة بمستقبل خطير، وتحالف مملوء بالخيبات، لكنّه يبدو ضروريًّا. ليس مؤكّدًا ما إذا كان الحلّ الذي اختِيرَ كان هو الأمثل.

قيل إنّ اتفاقًا من دون كتابة خير من كتابة من دون اتّفاق. مع ذلك، ينبغي لنا ألّا ننسى النتائج التي ترتّبت على غياب الكتابة بين فرنسا وإنكلترا، الأمر الذي جعل ألمانيا تأمل في الحياد البريطانيّ، وتقترح عليها إعلان الحرب علينا.

الواقع أنّ معاهدات التّحالف الزّاخرة بالتّحفظات هي أكثر خطورة من منافعها، ذلك بأنّها تستلهم أمانًا زائفًا.

عندما تُصبح التحالفات سلسلة تُقيِّد، من بعد أن كانت رابطة تُوَحِّد، يغدو تفكّكها وشيكًا.

5 ـ مجتمع الأمم

يُعتبَر قصر مجتمع الأمم في جِنَوَى[1] في عيون علماء النّفس قصرَ أوهام، لكنّ هذه الأوهام تُلقِى مُغَلَّفةً بآمال قويّة بما يكفي كي تُغطّي ضعفها. وبعد، تتخيَّل الشّعوب أنّ المجمَع العلميّ هذا الذي يضمّ حكماء قدامى سيكتشف الوسيلة الكفيلة بتجنيب العالَم جحيم الخراب والأسى اللذين تُفضي إليهما الحروب الحديثة.

إلى ذلك، لم يشتَبِهِ القُضاة الصّالحون ـ لكنّهم مع ذلك محدودون ـ الذين طالبوا في مؤتمرات لاهاي بحظر استعمال بعض الأسلحة، بالتفوّق العسكريّ الذي عَزوهُ إلى الدول التي تحتقر أحكامهم، ولم يَعزوه إلى الدول التي تحترمها.

أسهم الحالمون الإنسانويّون، وتحديدًا أنصار الأنا التي هي مبدأ القوميّات، في إغراق أوروبا في حالة من الفوضى، بحيث لا يستطيع أيّ أحد أن يتوقّع نهايتها.

سوف يبقى مجتمع الأمم عبثيّة سيكولوجيّة حتّى يأتي اليوم الذي تمتلك فيه قوّة أخلاقيّة أو ماديّة كافية تُحوّلها إلى دولة-متفوّقة، بحيث ستغدو قراراتها أيضًا قراراتٍ عالميّة محترَمة تمامًا كما كانت تُحترَم قرارات الباباوات في القرون الوسطى.

---

(1) ينبغي تمييز مجتمع الأمم La Société des nations من عصبة الأمم La Ligue des Nations، إذ يرمز الأوّل إلى التصوّر الأوّل الذي سبق نشوء الثانية، والقصر الذي يُشير إليه لو بون هنا قائم في مدينة جنوَى الإيطاليّة، وليس على الإطلاق قصر الأمم الذي بُنِيَ في ثلاثينيّات القرن الماضي في جنيف ليكون مقرًّا لعصبة الأمم. (المترجم)

يبدو أنّه مُقدَّرٌ لكلّ مشاريع التّحكيم الدوليّ، التي تتمّ عبر أيِّ مجتمعٍ أممٍ، أن تبقى مشاريعَ وهميّة عندما يتعلّق الأمر بتوفيق مصالِح يتعذّر، بوضوح، التوفيق بينها. فهل كان التحكيم ممكنًا بين روما وقرطاج في عصر الحروب البونيقيّة، أو بين إنكلترا وفرنسا عندما تنازعتا بشأن السيطرة على الهند؟[1] ما من تحكيم قد يكون ممكنًا بين اليابان التي تبحث عن أن تصبّ فائض سكّانها في الولايات المتّحدة، وبريطانيا العظمى التي ترفض غزو العرق الأصفر. بالنّظر إلى مصالحَ كهذه، التي تختلف تمامًا عن مصالح الفريسة والصيّاد، والقصّاب والخِرَاف، تُشكِّل الحرب المـُحَكِّم الوحيد الذي ينبغي أن تُحتَرم قراراته.

تُظهِر مقاومةُ الأتراكِ الحديثةُ اليونانيّين،[2] مرّة أخرى، أنّ ثمّة مسائل لا يُمكن أن تُحلّ إلّا عن طريق المدافع.

---

(1) الحرب الأنكلو ـ فرنسية هي صراعات حربية نشبت بين فرنسا وبريطانيا العظمى مع حلفاء كل منهما بين عاميّ 1778 و1783. كان للخصمين في المواجهة البحرية في المحيط الهندي أهداف ترمي إلى الهيمنة السياسية على شبه القارة الهندية. انظر ويكيبيديا. (المترجم)

(2) الحرب التركية اليونانية من سنة 1919 حتى سنة 1922، والمعروفة أيضًا باسم الحرب في آسيا الصغرى أو حملة آسيا الصغرى، أو الحملة اليونانية في حرب الاستقلال التركية أو نكبة آسيا الصغرى، هي سلسلة من الحوادث العسكرية التي جرت خلال تقسيم الدولة العثمانية بعد الحرب العالمية الأولى بين أيار 1919 وتشرين الأول 1922. دارت الحرب بين اليونان والثوريين الأتراك من الحركة الوطنية التركية، التي قادت في وقت لاحق إلى إنشاء جمهورية تركيا. بدأت الحملة اليونانية بتشجيع من حلفائها الغربيين، وخاصة رئيس الوزراء البريطاني ديفيد لويد جورج، الذين وعدوا اليونان بمكاسِبَ إقليمية على حساب الدولة العثمانية. انتهت الحملة بتخلي اليونان عن كل الأراضي التي اكتسبتها خلال الحرب، والعودة إلى حدود ما قبل الحرب، والانخراط في عملية تبادل السكان مع الدولة التركية في إطار الأحكام الواردة في معاهدة لوزان. انظر ويكيبيديا. (المترجم)

الفصل الرابع

الحقّ والأخلاق

1 ـ الأعراف والقوانين

يُمثِّل الملكُ، والقانونُ، والرأيُ المبادئَ المختلفة للحُكم. الحقّ أنّ الملوك افتقروا إلى القوّة بعد أن فقدوا هيبتهم. أمّا الرأي فهو متغيّر جدًّا كي يمنح الاستقرار لأيّ شعب من الشّعوب. وعليه، بإمكان القانون وحده اليوم أن يخلق الاستقرار. بعبارة أوضح، تعمّ الفوضى منذ اللحظة التي يُتَوَقَّف فيها عن احترامه.

الواقع أنّ رفض الخضوع لقائد، أو قانون، أو معتقد، وبكلمة واحدة: رفض الخضوع لإكراه، هو إرغام الذات على عدم امتلاك مرشدٍ لها سوى الدوافع الغرائزيّة، والعودة، من ثَمّ، إلى حالة البربريّة التي جهدت الشّعوب على امتداد قرون كثيرة في سبيل الخروج منها.

تُشكِّل الحياة الاجتماعيّة والحياة العلميّة وجهين من أوجه الحضارة تحكمهما مبادئ مختلفة تمامًا. في الحياة الاجتماعيّة، يُعتبَر احترام مبدأ السلطة ـ سلطة القائد، والقانون، والأعراف ـ شَرطًا أساسيًّا للوجود. في الحياة العلميّة، يُمثِّل الرّفض المُطلَق لمبدأ السّلطة، على العكس،

شرطًا أساسيًّا للتقدّم. يتوقّف تطوّر أيِّ علمٍ حالما يتسلّل إليه مبدأ السلطة.

حقيقة الأمر أنّ سَنَّ قوانين تنتهكُ العادات والمصالح العامّة، من دون أن تُلَاحَظ، هو مؤشِّر على زعزعة احترام القوانين في النفوس، أي زعزعة المبدأ الذي يُشكّل حجر الرِّحى في الحضارات الكبيرة.

أضف إلى ذلك أنّ المطالبة بمحاربة قوانين الضرورات الاقتصاديّة التي تُدير العالَم تُعتَبَر خطأ فادحًا. فالقوانين التقييديّة التي تراكمت منذ بضع سنوات من أجل إجبار المنظِّرين السُّذَّج على الخضوع للضرورات، لم تفعل شيئًا سوى أنّها شلّت الحياة الصناعيّة، والزراعيّة، والاقتصاديّة لعدد كبير من الشّعوب.

الواقع أنّ الصراعات المستقبليّة بين مختلِف طبقات شعبٍ بعينه لَن تتمّ، على الأرجح، تحت تهديد السّلاح، بل ستُتَرجَم، تمامًا كما حصل لدى اليونانيّين القدماء، عن طريق قوانينَ اجتماعيّة تتسبّب في القضاء التامّ على من هم أضعف.

تغدو القوانين القمعيّة قوانينَ حمائيّة منذ اللحظة التي تُفرَض فيها بشكل صارِم. الخشية من العقاب هي إذًا أكثر فعاليّة من تطبيقها. وعليه، من شأن تجاهل هذا المبدأ السيكولوجيّ أن يُفضِيَ إلى تنامي الجريمة بشكل ملحوظ في مختلِف البلدان.

تتوقّف آثار أيّ قانون، دائمًا، على ذهنيّة الناس الذين من المفترض أن يحكمهم. يُردّد القانونيّون أنّ القوانين لا قيمة لها من دون الأخلاق، لكن منذ اللحظة التي يبدؤون فيها بالتشريع، ينسون هذا المبدأ الأساسيّ.

تبقى القوانين الاجتماعيّة، التي تُمثِّل إكراهات مصطنَعَة، من دون قوّة. على العكس، تفرض القوانين الاقتصاديّة، النّاجمة عن الضرورات الطبيعيّة، نفسها دائمًا، على الرغم من الجهود المبذولة من أجل انتهاكها.

من أكثر الأخطاء الديمقراطيّة انتشارًا الاعتقاد أنّه بإمكان القوانين أن تُوجِدَ أعرافًا. في الحقيقة، تُفضي الأعراف، في نهاية المطاف، إلى سَنِّ القوانين، لكنّ القوانين لا تخلق أعرافًا إلّا في ما نَدَر.

من بين آلاف الناس الذين يتطلّعون إلى تأسيس مملكة القانون والعدالة، قلّة قليلة ستكون قادرة على تعريف القانون والعدالة.

2 ـ الحقّ والقوّة

لا تسبق القوّة الحقَّ، لكنّ الحقّ لا يتثبَّت إلّا عن طريق القوّة.

يُمكن مقارنة الحقّ من دون قوّة بديكوراتِ قِلَاعٍ مرسومةٍ على لوحاتِ مسرح. هذه القلاع غير قادرة على الصّمود في وجه أدنى اصطدام. وعليه، يُمكنها أن تحتفظ بمظهرها المَهِيب هذا ما دمنا لا نمسسها البتّة.

بطبيعة الحال، لا يُمكن إبطال أيّ قوّة إلّا من خلال قوّة أخرى موازية لها على الأقلّ. بعبارة أوضح، سيكون من العبث التأكيد أنّ الحقّ يُهيمن على القوّة، ما لم نَعنِ ضمنًا كذلك أنّ الحقّ سيتوصّل إلى إثارة قوًى تتفوّق على القدرات الماديّة التي ينبغي له (أي الحقّ) أن يتغلّب عليها.

يُمكننا أن نغتاب القوّة، والتأكيد أنّها لن تنتصر على الحقّ، لكن في السياسة لا شيء يحلّ محلّها. فقبل بضعة أسابيع من انتصار أتاتورك[1] المدويّ،[2] أَنِفَ رئيس الوزراء الإنكليزيّ من استقبال مبعوثه. لكن

---

(1) أتاتورك مصطفى كمال أتاتورك (1881 ـ 938)، أول رئيس للجمهورية التركية (1923 ـ 1938)، وقائد الحركة التركية الوطنية، والقائد العام للجيش التركي خلال حرب الاستقلال التركية. كان قائدًا عسكريًّا للجيش العثماني خلال الحرب العالمية الأولى. بعد الحرب العالمية الأولى، بدأ ثورةً وطنية ضد الحكومة الإمبراطورية العثمانية القانونية في القسطنطينية وقوات الحلفاء. في هذا الثورة، تَقَوَّى بدعم من ضُبّاط الجيش العثماني والسياسيين والشعب. انتصر في حربه ضد القسطنطينية وقوات الحلفاء، ثم أسس جمهورية تركيا. واصل التحديث الموجه نحو الغرب الذي بدأته السلالة العثمانية ورجال الدولة العثمانية. بصفته بانِيًا للأمة، أنشأ الدولة القومية العلمانية التركية. كان عَلمانيًا وقوميًا، وأصبحت سياساته ونظرياته معروفة باسم الكَمَاليّة. لقد وضع تركيا على طريق أن تصبح دولة جديدة ونامية. لقد بذل جهدًا لجعل بلاده، وهي دولة زراعية فقيرة، مثل الدول الغربية المتقدمة. كانت القومية الاجتماعية والاقتصادية أساسية في سياسته الداخلية. انظر ويكيبيديا. (المترجم)

(2) إشارة إلى الحرب التركية اليونانية من سنة 1919 حتى سنة 1922، والمعروفة أيضًا باسم الحرب في آسيا الصغرى أو حملة آسيا الصغرى أو الحملة اليونانية في حرب الاستقلال التركية أو نكبة آسيا الصغرى، هي سلسلة من الحوادث العسكرية التي جرت خلال تقسيم الدولة العثمانية بعد الحرب العالمية الأولى بين أيار 1919 وتشرين الأول 1922. دارت الحرب بين اليونان والثوريين الأتراك من الحركة الوطنية التركية، التي قادت في وقت لاحق إلى إنشاء جمهورية تركيا. بدأت الحملة اليونانية بتشجيع من حلفائها الغربيين، وبخاصة من رئيس الوزراء البريطاني ديفيد لويد جورج الذين وعدوا اليونان بمكاسِبَ إقليمية على حساب الدولة العثمانية. انتهت الحملة بتخلي اليونان عن كل الأراضي التي اكتسبتها خلال الحرب، والعودة إلى حدود ما قبل الحرب، والانخراط في عملية تبادل السكان مع الدولة التركية في إطار الأحكام الواردة في معاهدة لوزان. أجبر فشل كافة الحملات العسكرية المنفصلة من قبل اليونان، وأرمينيا، وفرنسا ضد الثوار الأتراك الحلفاء على التخلي عن معاهدة سيفر، وبدأ التفاوض على معاهدة جديدة في لوزان بدلاً من ذلك، اعترف فيها الحلفاء باستقلال الجمهورية التركية وسيادتها على تراقيا الشرقية والأناضول والأقاليم السورية الشمالية. انظر ويكيبيديا. (المترجم)

صبيحة الانتصار، تعاطى رئيس الوزراء نفسه على قدم المساواة مع تركيا التي احتَقَرها بالأمس، وتخلّى لها عن مقاطعات ما دام يرفرف عليها العَلَم البريطانيّ.

يكتسب الحقّ والقوّة سلطة كبيرة من خلال توحّدهما. القوّة وحدها لا تُفضي إلى تحقيق نجاح مستمرّ. لقد اختبر الألمان هذا الأمر جيّدًا.

طالما حكمَتِ القوّةُ العالَم، بيد أنّ القوى التي هيمنت لم تكن هي نفسها في مختلِف العصور التاريخيّة. بعبارة أوضح، تنزع القوى الاقتصاديّة إلى أن تغدو هي القوى السياديّة في العالَم الحاليّ تمامًا كما كانت عليه القوى الدينيّة قديمًا.

يتفشّى الظّلم حيث يتفشّى عدم المساواة. الحقّ أنّنا لا نستطيع أن نمنع الظّلم، فهو قانون من القوانين الطبيعيّة التي يتعذّر اختزالها. وعليه، ينبغي لنا أن نستسلم لفكرة تحمّل الظّلم.

وبعد، من الصعوبة بمكان لوم الألمان على إصرارهم على المجاهرة بتفوّق القوّة. لقد هزمَتْهُمُ الجيوش التي حفّزتها حاجَتُها إلى الهيمنة. ها هم يرون إلى أيّ حالٍ مُزرية يُمكن أن يقودَ غِيَابُ القوّة شعبًا من الشّعوب.

3 ـ القوى الأخلاقيّة

ليس هناك أيُّ مثالٍ عن شعوب توصَّلت إلى الحضارة من دون انضباط، واحترامٍ للقوانين، ومن دون أخلاق.

لا يُمكن أيّ شعب أن يخرج من البربريّة إلّا عبر اكتساب أخلاقٍ ثابتة للغاية. والحال أنّه يعود إلى البربريّة في اللحظة التي يفقد فيها هذه الأخلاق.

أظهرَتِ الحربُ مرّةً أخرى أيضًا أنّ قوّةَ أيِّ أمّة تكمن في قُوّتها الأخلاقيّة أكثر من ثقافتها الفكريّة.

وعليه، رُبّما كان الصراع العالميّ هو الصراع الأوّل على امتداد التاريخ الذي توقّف فيه النّجاح النّهائيّ على مقاومة الجنود أكثر من كَفَاءة الجنرالات. اعترف لودندورف[1] Ludendorff في مذكّراته أنّ أمارات خسارة الحرب بدت واضحة أمامه عندما رأى معنويات جيشه تضعف.

يُمكن العلاقات الأخلاقيّة أن تغدو قويّة تمامًا مثل العلاقات الماديّة. على متن السفينة ثلاثيّة المجاديف[2] التي كانت تُقِلّه إلى قرطاج، حيث كان يعلم أنّ سيُحكم عليه بالموت، قَيَّد القنصل ريجولوس[3] Régulus نفسه بكلمته، هذه الكلمة التي تفوّقت بصرامتها على السلاسل الحديديّة التي كانت تُصَفِّده. هيمنت روما على العالَم لأنّها كان تملك رجالًا مثله.

تُحافظ القوانين العلميّة على ثباتها على امتداد الزمن حتّى لدى الشّعوب الأكثر تنوّعًا. على العكس، تتغيّر الأخلاق بحسب حاجات كلّ عصر. إذا

---

(1) إريش فريدريش فيلهلم لودندورف (بالألمانية: Erich Ludendorff) (ـ 1865): 1937 هو جنرال ونائب رئيس أكان الجيش الألمانيّ، وصانع النصر في معركة لياج (وهي عميلة غزو بلجيكا، وكانت أول عملية عسكرية في الحرب العالمية الأولى). عُيِّن في العام 1916 ضابطًا في هيئة أركان الحرب، مما جعله أقرب إلى الجنرال هندنبورغ، ومن هنا بدأ بإدارة دفة الحرب حتى استقالته في 1918. انظر ويكيبيديا. (المترجم)

(2) ثلاثية المجاديف (باليونانية Τριήρης، باللاتينية: Trireme «تريس ريمي») هي سفن حربية مصنوعة من الخشب بطول 150 قدمًا، وعرض 150، ويحركها 170 مُجدِّفًا، والطاقم الكامل يصل إلى 200 رجل، كانت مزودة بمجاديفَ في المقدمة.

(3) ماركوس أتيليوس ريجولوس (307 قبل الميلاد ـ 250 قبل الميلاد) رجل دولة رومانيّ، كان قنصلًا للجمهورية الرومانية في 267 قبل الميلاد، و256 قبل الميلاد.

كان ما نُطلِق عليه رذيلة وفضيلة ـ كما لاحظ باسكال[1] ـ يتغيّر مع البيئات، فذلك لأنّ الفضيلة والرذيلة، بما هما تعبير عن ضرورات اجتماعيّة خاصّة بحقبة بعينها، يتحوّلان حتمًا عندما تتطوّر تلك الضرورات. من الطبيعيّ، إذًا، في المسائل الاجتماعيّة أن تصحّ المقولة الآتية: «الحقيقة قبل جبال البيرينيه تُصبح خطأ وراءها».

الواقع أنّ الخاصيّة التي تميّز الطبائع البدائيّة هي الاستسلام بسهولة للغرائز. تَلْزَم تربية تأسّليّة طويلة من أجل تعليم الدماغ كيفيّة السيطرة على غرائز الحواس، واكتساب السيطرة على النّفس التي يعتبرها الإنكليز خاصيّة من أهم خواص الشخصيّة.

لا يحتاج الإنسان الأخلاقيّ بحقّ إلى مناقشة أخلاقه قبل أن يتصرّف. بصفة عامّة، تظلّ الأخلاق التي تُنَاقَش باستمرار من دون قوّة.

إلى ذلك، تبقى الأسلحة من دون فعاليّة إذا لم تدعمها القوّة المعنويّة للمتقاتلين.

خلاصة القول، إنّ الشّعب الذي يفقد سنده الأخلاقيّ هو أقرب ما يكون إلى خسارة كلّ شيء.

4 ـ مصادر الأخلاق

الواقع أنّ الأخلاق التي يُستَرشَد بها في الحياة لها مصادرُ أخرى مختلفة تمامًا عن تلك التي تُعلِّمها الكتب.

---

(1) باسكال (Blaise Pascal) (1662 ـ 1623): فيزيائي ورياضي وفيلسوف فرنسي اشتهر بتجاربه على السوائل في مجال الفيزياء، وبأعماله الخاصة بنظرية الاحتمالات في الرياضيات. هو من اخترع الآلة الحاسبة. استطاع باسكال أن يسهم في إيجاد أسلوب جديد في النثر الفرنسي بمجموعته الرسائل الريفية.

بعبارة أخرى، يختفي الانتظام الدّاخليّ الذي تفرضه مؤقّتًا قوّة ماديّة. بيد أنّ انتظامًا داخليًّا يستند إلى العادة، يترسّخ، على العكس، دونما حاجة إلى قانون أو إلى سيّد.

إذا كان الدّين يملك تأثيرًا كبيرًا في الأخلاق، فهذا يعني أنّ الشّعوب الأكثر تمسّكًا بالدِّين هي التي ستكون أكثر أخلاقيّة. مع ذلك، إذا امتدحنا تَدَيُّن الإسبان والرّوس، فما من أحد سيُثني كثيرًا على أخلاقهم.

إنّ أخلاقًا تجد مَرَدّها في الخشية من النّار، والأمل في الجنّة، لا تعدو كونها الشّكل الأدنى من أشكال الأخلاق النّفعيّة. ذلكم ما لاحظه اللاهوتيّون منذ وقت طويل.

بتعبير آخر، يُمكن القول بأنّ الفضيلة التي لا ترتكز إلّا على الخشية من النار، والأمل في الجنة، فضيلة تفتقر تمامًا إلى الجدارة. الواقع أنّ المتوحِّدين في دَيْر Port ـ Royal [1] الذين استحوذ عليهِمُ الرّعبُ من عذاب جهنّم قد اتّبعوا دوافعَ أنانيّة لا تستحقّ أيّ اعتبار.

حقيقة الأمر أنّ الضّوابط العقليّة المحض التي ندّعي تعميمها اليوم ستبقى على الدّوام عاجزة عن السيطرة الدوافع الغريزيّة.

فما هي الأسس الممكنة للأخلاق؟ الخوف من الآلهة؟ الحقّ أنّ

---

(1) إشارة إلى الجَنْسينيّين Jansénisme: مذهب جنسينوس المتعلّق بالنّعمة الإلهيّة والجبريّة، كما يُشير إلى حركة دينيّة وفكريّة أثارها أتباع هذا المذهب. ويُفيد أيضًا مذهبًا أخلاقيًّا مسيحيًّا متشدّدًا، وذلكم ما يروم لو بون التركيز عليه من خلال حديثه عن المتوحدين الذين سكنوا في القرن السابع عشر في دير Port ـ Royal، وكابدوا الخوف من الجحيم، فزهدوا زهدًا كبيرًا، وانعزلوا انعزالًا مطلقًا، وانفضّوا عن الحياة الاجتماعيّة، والجدير بالذّكر أنّ باسكال كان واحدًا منهم.

عقوباتها بعيدة كلّ البعد عنّا، وعادت لا تُخشى كثيرًا اليوم. الخشية من القوانين؟ الواقع أنّه يُتَمَلَّص منها بسهولة. العقل؟ لا توجد إلّا ثلّة نادرة من الأساتذة تعزو إليه دورًا كهذا. الأخلاق الوحيدة الفعّالة هي الأخلاق اللا واعية التي تخلقها العادات. تتطوّر هذه العادات في المدرسة، ومن ثَمّ في الثّكنة، عن طريق انتظام يُفرَض بداية بشكل صارم، لكن سرعان ما يُمَارَس من دون جهد بسبب آليّة التّكرار.

إلى ذلك، لم يُقدِّم الأكاديميّون الذي طالبوا، منذ كانط، بتشييد الأخلاق على أساس هو في الوقت نفسه عقلانيّ وصوفيّ، عوضًا عن تأسيسها على عادات ناجمة عن التربية، لم يُقدِّموا سوى تعليم يفتقر تمامًا إلى الفعاليّة.

تجد الأخلاق الفرديّة سَنَدًا قويًّا لها في الأخلاق الجمعيّة. يُفكِّر النّاس ويتصرّفون، في مظاهر حياتهم اليوميّة، بصفّة عامّة، كسائر أعضاء المجموعات المهنيّة، أو السياسيّة، أو الاجتماعيّة التي ينتمون إليها. وعليه، تخضع أعمالهم الفرديّة للتأثيرات الجمعيّة.

تُمثِّل مشكلة التّنظيم ـ الفرديّ أو الاجتماعيّ ـ على وجه الخصوص، مسألةَ انتظام أخلاقيّ. إنّها تتفلّتُ من عمل المؤسّسات ومن القوانين.

الفصل الخامس

أشكال الاستبداد الحديثة

1 ـ التّطرّف

التطرّف الذي يُلحَظ لدى كلّ الأحزاب الثوريّة حالةٌ ذهنيّة حيث يغدو الإنسان، الذي تُسيطِر عليه فكرة ثابتة، غير قادر على تبيّن الحقائق وتبعاتها.

يمتلك المتطرّفون، من جميع الآراء، على الرّغم من تباين الأهداف المتوخاة، خصائص مشتركة. فالمتطرِّف الصادق هو شخص صوفيّ، وعنيف، ومحدود.

الواقع أنّ المتطرّف الذي سيمتلك قَدْرًا ضئيلًا من الحكم والتبصّر سيكفّ سريعًا عن أن يكون متطرِّفًا.

حقيقة الأمر أنّ عضو المؤتمر الوطنيّ، وسادن المقصلة المتحمِّس، الذي أعرب عن استعداده تحويلَ بلاده إلى مقبرة من أجل فرض معتقداته، قد عبّر بفعله هذا عن ذهنيّة المتطرّفين على امتداد العصور. الحقّ أنّ رُسُل الحركة النقابيّة، والشيوعيّة، والاشتراكيّة حَلَموا بارتكاب المجازر نفسها.

بهذا المعنى يقود الإيحاء، والعدوى الذّهنيّة الجماهيرَ، بسهولة، نحو التطرّف، بيد أنّ التطرّف هذا هو بصفة عامّة سريع الزّوال.

تنزع الآراء المتطرّفة، في المجالس الثوريّة، إلى الاحتفاظ بالآراء الأكثر تطرّفًا أيضًا. فبعد حقبة الجيروندّيين[1] أتى عهد الإرهاب.[2] في السياق نفسه، حلّ سريعًا محلّ المعتدلين الرّوس، الذي أطاحوا بحكم القيصر، الدمويّون البلشفيّون.

الواقع أنّ الأحزاب السياسيّة المتطرّفة بدأت، منذ فجر التّاريخ، بعظمة الأوهام، وسرعان ما انتهت إلى الوضاعة الناجمة عن المنافسات الداخليّة.

يؤكّد التقدّم الذي تُحرزه بعض الآراء المتطرّفة ـ مع العلم أنّها آراء عبثيّة بوضوح ـ هذا المفهوم الأساسيّ الذي مفاده أنّ قوّة أيّ نظريّة اجتماعيّة أو دينيّة لا تتعلّق البتّة بقيمتها العقلانيّة، بل تتعلّق بسيطرتها على النّفوس وحسب.

---

(1) الجيروندّيون أعضاء حزب سياسي نشأ أثناء الثورة الفرنسية. وجاءت تسمية الحزب بهذا الاسم لأن معظم القادة المُنَظمين له ينتمون لمقاطعة جيروند. والجيروندّيون جمهوريون، ويمثلون البراجوزّية (الطبقة المتوسطة)، ويؤمنون بالملكية الخاصة، ويخشون من سيطرة نوّاب باريس على فرنسا كلها. وكانوا يفضّلون التّخلص من الملكية في فرنسا وإنشاء جمهورية فدرالية. وأهم شخصيتين من الجيروندّيين هما: جاك بيير بريسو دي وارفيلي، وجان ماري رولان دلا بلاتيير. جاء الجيروندّيون إلى الحكم بناءً على دستور الجمهورية عام 1791م. وفي شهر حَزِيران من العام 1793م أجبرت مظاهرة من عامة الناس في باريس المؤتمر المحلي على إزاحة واعتقال الجيروندّيين. هرب العديد من قادتهم إلى نورماندي حيث اعتادوا عقد اجتماعات سرية. انظر: ويكيبيديا.

(2) عهد الإرهاب (5 أيلول 1793 ـ 28 تمّوز 1794) (بالفرنسية: la Terreur) اسم يطلق على فترة مملوءة بالعنف شهدتها فرنسا بعد اندلاع الثورة الفرنسية بسبب الصراع بين الفصائل السياسية المتناحرة من الجيروندين واليعاقبة. اتسمت تلك الفترة بأحكام الإعدام الجماعية لمن وُصفوا بأنهم «أعداء الثورة» والتي راح ضحيتها الآلاف. انظر: ويكيبيديا.

لقد أمكن الطّموح والحاجة إلى الشّعبيّة أن يقودا بعض النّاس المتبصِّرين إلى التّطرّف، لكنّهم كانوا يعلمون أنّ ممارسته ستحول دون قيام أيّ حكومة، لذا ترفّعوا عنها عندما وصلوا إلى السّلطة.

يتعلّق التّطرّف، في المرحلة الأخيرة من تطوّره، بمجال المرض العقليّ أكثر ممّا يتعلّق بالسياسة. تعجّ مصحّات المجانين بالمتطرّفين.

2 ـ الاشتراكيّة

تشتمل الاشتراكيّة، بما هي مصطلح غير واضح، على مفاهيم مختلفة للغاية تتنوّع بحسب الأعراق. ونتيجة لذلك، لم يتمكّن الاشتراكيّون، الذين قدموا من مختلف البلدان، من التّفاهم في المؤتمرات التي عقدوها.

تختلف الاشتراكيّة في الولايات المتّحدة تمامًا عن الاشتراكيّة الأوروبيّة. يتجلّى المثل الأعلى للعامل الأمريكيّ في أن يُصبِح ربّ عمل، في حين أنّ العامل اللاتينيّ بخاصّة يحلم بإطاحة ربّ العمل.

الحقّ أنّ تضخّم بعض المشاعر هو أمرٌ في غاية الخطورة بالنّسبة إلى أيِّ شعبٍ من الشّعوب. في هذا السّياق، تسبّب تضخّم الحسد ـ وهو ركيزة أساسيّة في الاشتراكيّة ـ في كثير من الخسائر في أوروبا، شأنه في ذلك شأن الأوبئة الأخطر.

لو كان بالإمكان استبعاد الحسد، والغيرة، والكراهية من العالَم، لاختَفَتِ الاشتراكيّة في اليوم نفسه.

تتسبّب كراهية التّفاوت ـ وهي أساس الاشتراكيّة ـ في تدمير النّخب الذين يصنعون عظمة أيّ بلد. وتلكم، والحقّ يُقال، تبعة ضروريّة من

تبعاتها. وعليه، وَعَتِ البلشفيّة الروسيّة هذه الضّرورة تمامًا عندما مضت قُدمًا في ارتكاب مجزرة ممنهجة بحقّ المفكّرين. بدورها، قامت الاشتراكيّة الثّوريّة، التي انتصرت لوقت قصير في ألمانيا وهنغاريا، بأعمال التّدمير نفسها.

تُوجِّه الاشتراكيّة المساواتيّة، التي تصل بيُسرٍ تامّ إلى النّفس الساذجة للجماهير، بسهولة القوى العمياء والمدمِّرة للأغلبيّة.

وبعد، لم تُعَبِّر كراهية الاشتراكيّين الحادّة للرأسماليّة، في الغالب، إلّا عن شكلٍ حادّ من أشكال الرّغبة في تحقيق الثّراء. لا تُعوِّلُ الدّول مثل الولايات المتّحدة، التي يسهل فيها تكوين الثروات، على الاشتراكيّين إلّا في ما نَدر.

تملك القوانين المسمّاة قوانين اجتماعيّة سلطةَ تدميرٍ تتفوّق في بعض الأحيان على سلطة المدافع. في هذا السياق، كاد تطبيق قانون الثماني ساعات[1] يتسبّب في التدمير السريع لأسطولنا التجاريّ لصالح المنافسين الذين كانوا أذكياء بما يكفي كي يقبلوا مرسومًا مهذا. لذا وجب إلغاؤه.

علاوة على ذلك، من شأن إلغاء المنافسة بين الشّعب والأفراد، كما أراد الاشتراكيّون، أن يؤدّي إلى تدمير عامل سيكولوجيّ كبير يُعتبر من أهم عوامل التقدّم. بعبارة أوضح، ما كانت الاكتشافات التي استفاد منها العالَم بأسره لترى النّور لولا التنافس.

(1) الحقّ أنّ مطلب تخفيض ساعات العمل اليوميّة إلى ثماني ساعات مطلب قديم، نادى به ماركس، ودعمه الاتحاد العمّالي العام في فرنسا. أمّا الهدف المتوخّى منه، لا سيّما بعد هدنة 1918، فيتجلّى في السماح بمشاركة أكبر قدر ممكن من العمّال في العمل.

أظهر السكّان العاملون في الولايات المتّحدة، تجريبيًّا، أنّ الطّبقات، التي اعتبرها الاشتراكيّون بمثابة أعداء لهم، تجد مصلحتها في الترابط أكثر ممّا تجدها في الاقتتال. إذا أمكن هذه الحقيقة أن تترسّخ في فرنسا، فإنّ حياتنا الاقتصاديّة والاجتماعيّة ستتغيّر حتمًا.

الواقع أنّ المبادرة، والحكم، والتّنافس، وطعم المخاطرة، والخصائص المولِّدة للاكتشافات الكبيرة التي غيّرت العالَم، هي مهارات فرديّة بامتياز لن يكون بمقدور أيّ مجتمع أن يمتلكها على الإطلاق. بوجيز العبارة، لن يتمكّن البلد، الذي سينجح الاشتراكيّون في تدمير جهده الفرديّ، من تحقيق أيّ تقدّم مهما كان ضئيلًا.

خلاصة القول، إذا كانت التّجارب المتكرِّرة على امتداد التاريخ لم تكفِ من أجل إثبات أنّ تقدّم الشّعوب يتحقّق من خلال نُخبها فقط، فمن غير الطائل أن يأتي انهيار روسيا ليُبرهن هذا الأمر مرّة أخرى.

3 ـ الحركة النّقابيّة

قَدَّسَتِ الثّورة إرادة الشّعب. قل كذلك عن ثوراتنا التي مَجَّدتها، لكنّها فصلت عنها نوعًا من الأرستقراطيّة التي يُمكن وصفها بأنّها «بروليتاريا منظَّمة وواعية». بموجِب هذا التصوّر الجديد، ازدرَت الحريّة، والاقتراع العام، وكلّ الفتوحات الدّيمقراطيّة.

يُظهِر الانضباط الصّارم، الذي قَبِلَ به أتباع الحركة النّقابيّة، إلى أيّ حدّ ستغدو هذه الحركة استبداديّة. يُمكننا أن نتساءل ما إذا كانت عبوديّة الفرد التامّة لا تُشكِّل على الإطلاق النّتيجة الضروريّة للتطوّر الديمقراطيّ.

وعليه، إذا جمعت النّقاباتُ المصالحَ الماديّةَ المتشابهة وحسب، فإنّ تأثيرها سيكون ضعيفًا، بيد أنّها تكتسب، بإقحامها مشاعر السّخط، والكراهية، قوّة ثوريّة كبيرة.

لن تحدث النزاعات المستقبليّة الأخطر على الدوام، بين الشّعوب المتنافسة. الواقع أنّها ستندلع بين نقابات الشّعب الواحد، ذلك بأنّها ستتنافس في ما بينها نتيجة تباعد مصالحها. في هذا السياق، نستذكر النقابيّين الجمهوريّين الإيطاليّين في العصر الوسيط، وعلى وجه التّحديد نقابيّي فلورنسا، الذين عانوا تباعًا من نزاعات مماثلة.

إذا كان ينبغي لدكتاتوريّة البروليتاريا، التي يُطالِب الاشتراكيّون بها، أن تُمارَس من خلال العمّال جميعًا، فإنّها لن تختلف أبدًا عن حكومة ديمقراطيّة عاديّة. أمّا إذا طُبِّقَت من خلال بعض الأفراد وحسب، فإنّها ستغدو شبيهة بدكتاتوريّة الأنظمة الاستبداديّة القديمة.

لم يكن مُنَظِّرو العقل المحض سعداءَ في مساعيهم من أجل تطبيق هذه الدكتاتوريّة على حكم الشّعوب. المسعى الأوّل، هو مسعى الثّورة الكبرى،[1] التي تحقّقت طبقًا لإنجيل روسّو، وأفضت إلى ارتكاب المجازر، وشيوع الإرهاب، ناهيك بعشرين عامًا من الحروب. المسعى الثّاني، هو مسعى روسيا، التي استلهمت إنجيل كارل ماركس، وقادت إلى القضاء التامّ على إمبراطوريّة القياصرة العظيمة.

(1) أي ثورة 1789 التي امتّدت حتى عام 1799.

4 ـ الشيوعيّة

تتّسم البلشفيّة الشيوعيّة، على غرار الاشتراكيّة، بسمات أساسيّة: الاستياء، وكراهية التفوّق، والرغبة في تدمير نظام الأشياء القائم بعنف.

عندما يعظم الاستياء لدى أمّة ما، لأيِّ سببٍ كان، تقبل على الفور أيّ عقيدة تُعْرَض عليها كي تُعالج أمراضها. الواقع أنّ نجاح الشيوعيّة لدى أمم عديدة هو تبعة من تبعات هذا القانون.

حقيقة الأمر أنّنا نجد بسهولة أناسًا مستعدّين لارتكاب مجازر، لكنّنا لا نجد سوى قلّة قليلة قادرة على إدارة الآليّات المعقّدة لأيّ حضارة. لم يتجاهل الشيوعيّون الروس هذه الحقيقة الأساسيّة عندما اغتالوا بشكل ممنهج مفكّري بلادهم. بيد أنّهم لم يفطنوا إلى خطئهم إلّا أمام الانهيار الاقتصاديّ الذي نجم عن هذه المجازر.

يُظهر تفكّك روسيا، التي يعمل عمّالها اثنتي عشرة ساعة في اليوم تحت سيطرة حكّام قاسين للغاية من أجل كسرة خبز، يُظهر مرّة أخرى أيضًا كم أنّ المجتمعات هي عبارة عن أجهزة مُعقَّدة. بعبارة أخرى، تُعتبَر المؤسّسات ابنة الزّمن والضّرورة، لذا يبدو من المحال تغييرها بوساطة مراسيمَ تمامًا كما هي الحال بالنّسبة إلى بنية كائن حيّ.

خلافًا لنظريّاتها، تتطوّر الشيوعيّة شيئًا فشيئًا نحو قوميّة غير معروفة من قبل. الحقّ أنّ الروس لم يفقهوا قوّة فكرة الوطن إلّا في اليوم الذي بدا فيه هذا الوطن مهدَّدًا من الخارج.

لقد قيل، وبحقّ، في البرلمان الإنكليزيّ، إنّ روسيا لا يُعوزها المال، بل تُعوزها عقول الغرب. لقد أمكن التّجربة وحدها أن تُرسِّخ هذه الحقيقة في دماغ الشيوعيّين الضّعيف.

لو أنّ النظريّات الشيوعيّة هي التي حكمت البشريّة على امتداد العصور، لَظلّ الإنسان يعيش في عمق الكهوف، ويرتدي جلود المواشي، ويُزاحم الحيوانات المفترسة في مسألة الحصول على الغذاء. الحقّ أنّ استمرار البلشفيّة في روسيا من شأنه أن يقود هذا البلد سريعًا إلى ظلمات ما قبل التّاريخ.

وبعد، لا يحتاج مجتمع بلشفيّ محض إلى علماء بل يحتاج إلى زنوج من القارّة الأفريقيّة.

مرَّت الشيوعيّة الروسيّة بمرحلتين مختلفتين. المرحلة الأولى: المساواة التامّة، التي حُقِّقَت عن طريق نهب الثّروات، واغتيال المفكّرين. الواقع أنّ المرحلة هذه كانت العصر الذّهبيّ للعقيدة الشيوعيّة. لكنّ الوهم تلاشى بعد استنفاد المخزونات المنهوبة، لا سيّما بعد أن أضحت المصانع، والمناجم، ووسائل النّقل غير الصالحة للاستعمال نتيجة الافتقار إلى القدرات. لذا وجب عليهم، والحال هذه، طلب رؤوس الأموال، واستجداء ذكاء الغرب.

خلاصة القول، من شأن توسّع الاشتراكيّة المساواتيّة، التي تعيث فسادًا في روسيا، أن يقود أوروبا إلى المرحلة البربريّة التي تلت الغزوات الجرمانيّة القديمة.

5 ـ المساواة والحاجة إلى العبوديّة

بالنّسبة إلى الإنسان، لا تعدو الحريّةُ كونَها، في الأعمّ الأغلب، القدرةَ على اختيار عبوديّته.

أكّد رئيس وزراء الإمبراطوريّة البريطانيّة أنّ «العالَم بأسره كان تَعِبًا

من السيادات كلّها». في الحقيقة، لم تطالب الشّعوب على مرّ التاريخ بأن تُحكَم كما تطالب اليوم. الواقع أنّ الدكتاتوريّين أنفسهم لا يكفّون عن المطالبة بدكتاتوريّين.

تتلخّص المسألة الاشتراكيّة في معرفة ما إذا كانتِ المساواة في حالة البؤس، من دون تَوَفُّر وسيلة للخروج منها، أفضل من عدم المساواة التي تُجيز كلّ الطموحات، وتُشكِّل بالنّسبة إلى الإنسان حافِزًا طاقَويًّا للجهد والتقدّم.

مهما يُمكن أن تكون عليه المجموعات الحالِمة، فإنّه من شأن دكتاتوريّة البروليتاريا أن تعود بها دائمًا إلى الاستبداد المطلق، على الأقلّ لجهة بعض التدابير المتّخذة. الواقع أنّ المحصّلة النهائيّة لنظامٍ كهذا ستكون استفحالًا ملحوظًا للاستبداد القديم، تمامًا كما هي الحال في روسيا.

إذا توصَّل الحُدْبُ إلى تشكيل الغالبيّة في أيّ مجتمع، فإنّهم سيقومون، على الأرجح، بإبادة كلّ الأفراد القادرين على أن يكونوا أصحّاء. لهذا السّبب نفسه قضى الشيوعيّون الروس على الكثير من المفكّرين.

الفصل السّادس

تطوّر الحضارات

1 ـ كيف تُولد الحضارات وكيف تزول؟

تُؤَسَّس الحضارات على عدد قليل من الأفكار التي تُعتَبر بمثابة يقينيّات، ويجري احترامها عالميًّا. حقيقة الأمر أنّه ينبغي لنا معرفة دورها وليس قيمتها العقليّة.

إلى ذلك، هيمن على كلِّ حضارة عنصرٌ مختلفٌ عن العناصر التي هيمنت على الحضارات الأخرى. فقد هيمن العنصر العسكريّ على الحضارة الرومانيّة، والعنصر الفنيّ والأدبيّ على الحضارة اليونانيّة، والعنصر الدينيّ على حضارة العصر الوسيط، والعنصر الصناعيّ على حضارة العالم الحديث.

بهذا المعنى، منحتِ الهيمنةُ الحاليّةُ للتقنيّةِ المهندسَ والعاملَ سلطةً شبيهةً بتلك التي امتلكها رجال الكنيسة في خلال العصر الوسيط.

الواقع أنّ الشّعوب، التي استقرّت روحُها نتيجة ماضٍ طويل، تملك وحدها، على الرّغم من التباعد بين أحزابها، آراء تحظى بإجماع تامّ حول المسائل الأساسيّة المتعلّقة بالمصالح الجمعيّة لِعِرْقِها.

يُظهِر تاريخ الشّعوب المتحضِّرة، التي وقعت من جديد في فخّ البربريّة، مثل العالم الرومانيّ بعد الغزوات الجرمانيّة، وروسيا في أيّامنا هذه، يُظهِر أهميّة بعض عناصر الحضارة، نذكر منها على سبيل المثال: احترام العقود، والملكيّة، وحياة المواطنين. الحقّ أنّ امتلاكَ خصالٍ كهذه بدا أمرًا طبيعيًّا للغاية. ومع ذلك وجب بذل جهود مضنية على امتداد قرون من أجل اكتسابها.

تخلق الحضارة، قَسْرًا، المزيد من العقبات أمام الحريّة أكثر ممّا تخلقه الحالة البدئيّة، ومع ذلك ينبغي تحمّل هذه العقبات من أجل الترفّع عن البربريّة والوصول إلى الحضارة.

حقيقة الأمر أنّ تأثير الحَالِمينَ[1] في العالَم كان مذهلاً. فقد اشتقّت من أفكارهم دعامة الحضارات الكبرى. وعليه، لم يكن مؤكَّدًا أنّه «لو كان أنف كليوباترا أقصر طولًا لتغير وجه العالم كله»[2] كما قال باسكال. لكن من المؤكَّد أنّ كلّ الأشكال الأخرى للحضارات كانت ستظهر لو لم يمتلك الحالمون الكبار مثل بوذا ومحمّد القدرة الخارقة على جعل ملايين الناس يقبلون الأوهام النّاجمة عن أحلامهم.

---

(1) الهاذون (نسبة إلى من يهذي) أو المتوهّمون أو الحالمون أو المتهلّسون (من هلوسة): Les Hallucinés.

(2) لم يقصد باسكال بكلامه أنّ مصر كانت تحكمها امرأة بمحض الصدفة، وحسب، وهو حدث نادر عبر تاريخ مصر كلها، فلم يسبقها إلا حتشبسوت ولم تَلِها إلا شجرة الدرّ، بل ركّز كذلك على أنّ أنف كليوباترا لو كان أقصر طولًا ما كان ليعطي انطباعَ قوّةِ الشخصية الجذابة ليوليوس قيصر أو مارك أنطوني ومن ثمّ، ما كانا وقعا في حبّها، وخضعا لسحرها، وما كانت وقعت الحرب الأهلية بين الرومان، ولما تحولت الدولة الرومانية إلى النظام الإمبراطوريّ مما أدى إلى انهيارها. انظر:

https://www.ahrarnews.com/arznews/frontend/web/index.php?r=site/innermobile&ID=169325

الحقّ أنّ كلّ الإمبراطوريّات الكبرى التي لم تُدَمَّر بفعل الغزوات، هلكت تحت تأثير الحروب الأهليّة، أي إنّها دمّرت نفسها بنفسها. ذلكم كان مصير اليونان في العالَم القديم، والجمهوريّات الإيطاليّة في العصر الوسيط، وذلكم سيكون مصير بولندا وعلى الأرجح إيرلندا في الأزمنة الحديثة.

إلى ذلك، ينتهي الأمر دائمًا بشعب يزداد تعداده بسرعة أكبر من توفّر سبل عيشه إلى غزو كلّ جيرانه. وعليه، استطاعت إنكلترا من خلال سيطرتها على كلّ المستعمرات التي كان بإمكان ألمانيا أن تُرسِل إليها فائض سكّانها، استطاعت أن تُحاصِر في وسط أوروبا أمّة جُلِبَت كي تعيش على الاعتداء على جيرانها، عندما خالت نفسها الأمّة الأقوى.

من الخطر بالنّسبة إلى أيّ شعب أن يُحصي في وسطه عددًا كبيرًا من حالات الغرور الفرديّ، وألّا يُحصي عددًا كافيًا من حالات الكبرياء الجمعيّ.

في أوقات معيّنة من حياة الشّعوب، يُمكن ذكاء شخص واحد أن يُغيّر مصيرها. فإنكلترا كانت على وشك استبعاد تركيا من أوروبا عندما استطاعت عبقريّة جنرال أن تنتشل هذه الإمبراطوريّة من اللجة التي كانت ستغرق فيها.

وبعد، ليس بمقدور المفاهيم السياسيّة الجديدة، المستندة إلى حقّ الأمم في إدارة نفسها بنفسها، أن تُطبَّق لا على الشّعوب الضّعيفة التي لا تعرف بالضّبط ماذا تريد، ولا على الأمم غير القادرة على الاحتفاظ برغبتها في الشيء نفسه لمدّة طويلة.

الشّعوب، كما الأفراد، لا تتطوّر إلّا عبر بذل جهود مستمرّة. عندما يتوقّف تطوّرها التدريجيّ، يعقبها سريعًا تطوّر تقهقريّ كفيلٌ بخلق حالة انحطاط.

2 ـ المؤسّسات السياسيّة

سوف يغدو عدد كبيرٌ من الثّورات ضروريًّا من أجل إثبات أنّ تغيّرات المؤسّسات السياسيّة تملك تأثيرًا ضعيفًا في حياة الأمم. حقيقة الأمر أنّ ذهنيّة الشّعوب وليس المؤسّسات هي التي تُحَدِّد تاريخها.

تتحدّد الوضعيّة الحاليّة لأيّ كائن استنادًا إلى استمراريّة حالاته السّابقة. من هنا نجد أنّ التّحوّلات التي يُحقّقها كلّ جيل هي على الدوام تغيّرات ضئيلة. بعبارة أوضح، تُلفى الحالة الاجتماعيّة لأيّ شعبٍ مشروطة تمامًا بحالاته السّابقة. وعليه، لا يُمكن التغيّرات المطلقة التي تحلم بها الأحزاب السياسيّة أن تتحقّق على الإطلاق.

إلى ذلك، تتكوّن بنية الحياة الذّهنيّة من الأفكار، والمعتقدات، وحتّى من الأحكام المسبقة، التي غالبًا ما تفتقر إلى قيمةٍ عقلانيّة، ومع ذلك تُعتبر ضروريّة من أجل وجود هذا الشّعب.

ينبغي بداية، من أجل تغيير مؤسّسات أيّ شعب، تحويل المشاعر والأحلام التي تُشكِّل سَنَد روحه. تُفَسِّر استحالة إحداث تغييرات كهذه لماذا لم ينجح منظّرو الراديكاليّة، على الإطلاق، في فرض مؤسّساتنا على سكّان المستعمرات الأصليّين.

الحقّ أنّ دكتاتوريّة البروليتاريا التي طالب بها قادةُ الأحزاب الاشتراكيّة،

والنّقابيّون، تعني امتلاك هؤلاء القادة، حصرًا، جميع المنافع التي يُمكن أن تُفضي إليها ممارسة السّلطة.

في العلوم، حلّت سلطة الحقائق منذ وقت طويل محلّ سلطة الأشخاص. في السياسة، تبقى السّلطة الشّخصيّة ضروريّة على الدوام.

وبعد، قد تنجحُ قوّةُ قائدٍ في خلق وحدة مصطنعة لشعبٍ ما، بيد أنّها تتوقّف عندئذ على عمل هذا القائد، ولا تستمرّ من بعده على الإطلاق. الوحدة الدائمة الوحيدة هي تلك التي يُحقّقها في النّفوس مجتمعُ المؤسّسات، واشتراكُ المصالح، والمعتقدات.

ينتهي الأمر بحزب سيّاسيّ يُطالب بالسيطرة على سائر الأحزاب الأخرى بالتّسبّب في ردود أفعال تُحدِّد نهايته. فقد أفضَتِ الامتيازاتُ المتنامية لطبقة النّبلاء ورجال الدّين إلى قيام الثّورة الفرنسيّة. في هذا السّياق، تسبّبت مطالبُ ألمانيا بالهيمنة في إشعال الحرب التي وجب عليها أن تتحمّل عواقبها.

من وجهة نظر المؤسّسات السياسيّة، يُمكن أن تنقسم الشّعوب إلى ثلاث فئات: شعوب مستقرة، وأخرى غير مستقرّة، وفئة ثالثة غير مُتّسقة.

وروسيا بوصفها كتلة غير مُتّسقة من الشعوب البدائيّة، من دون مصالح مشتركة، ومن دون تقاليد، ومن دون ثقافة تُغطّيها قشرة رقيقة من الحضارة، لا يُمكن أن يُوحّدها إلّا الاستبداد.

بعبارة أوضح، لا يُمكن سلطة سياسيّة أن تستمرّ، لدى الشّعوب الدّنيا، إلّا إذا أصبحت سلطة استبداديّة أو ثيوقراطيّة.[1]

(1) الثيوقراطية: وتعني حكم رجال الدين أو الحكومة الدينية أو الحكم الديني. تتكون

لا يدعم السكّان الآسيويّون إلّا مؤسّسات استبداديّة، لذلك سرعان ما أُجبِرَتِ الشيوعيّة الروسيّة على تبنّي نظام يُماثل عمليًّا نظام قدامى القياصرة.

في السياسة، يتسبّب الفعل، كما في الميكانيكا، في ردّة فعل مساوية له، ومتناقضة معه. وعليه، من شأن كلّ استبداد متعاظم أن يخلق سريعًا ردّةَ فعلٍ مدمِّرة له.

3 ـ بعض تبعات الأفكار الديمقراطيّة

تُعَرَّف الديمقراطيّة نظريًّا بأنّها حُكم الشّعب. في الحقيقة، ما من ديمقراطيّة يُمكن أن تستمرّ من دون إشراف نخبة عليها. عندما يستمرّ حكمٌ ديمقراطيّ طويلًا، كما هي الحال في إنكلترا، فذلك لأنّه انتهى بأن غدا أرستقراطيّة الثّروة والذّكاء.

غالبًا ما يُشير انتصار الديمقراطيّة إلى نهاية الدّولة التي تنتصر فيها. بشيء من التّفصيل، غرقت اليونان، تحت تأثير الديمقراطيّات، في العبوديّة، وروما في الانحطاط، والجمهوريّات الإيطاليّة في العصر الوسيط وروسيا حديثًا في الفوضى والدكتاتوريّة.

يؤيّد أفلاطون الفكرة القائلة بأنّ الفضل في تقدّم الروح البشريّة يعود إلى أرستقراطيّة الذّكاء. بخلاف هذا الاعتقاد، يُقَسِّم الدكتاتوريّون الرّوس

كلمة ثيوقراطية من كلمتين مدمجتين في اللغة اليونانية هما ثيو وتعني الدين وقراط وتعني الحكم. وعليه فالثيوقراطية هي نظام حكم يستمد الحاكم فيه سلطته مباشرة من الإله، حيث تكون الطبقة الحاكمة من الكهنة أو رجال الدين الذين يعتبرون موجهين من قبل الإله. انظر: ويكيبيديا.

النّاسَ إلى أربع طبقات، بحيث يُمثِّل العمّال اليدويّون الطبقة العليا، في حين أنّ المفكّرين يُمثّلون الطبقة الدّنيا. من شأن الخراب التّام أن يُظهر سريعًا تبعات هذا التّصنيف.

أثبتت التّجربة الروسيّة، على نحوٍ قاطع، أنّ حكومة برجوازيّة، أكثر ضعفًا ممّا نفترضها، هي أقلّ استبدادًا بكثير من حكومة بروليتاريّة، مهما بلغت درجة الكمال التي يُمكن أن تصل إليها.

الحقّ أنّ التقدّم الذي أحرزه الديمقراطيّون لم ينجح في الحدّ من الكراهيّات الدوليّة، بل جعلها تتنامى يومًا بعد يوم.

يكمن واحد من أخطاء النظام البرلمانيّ الأكثر شيوعًا في الإطاحة بالحكّام في اللحظة نفسها التي لا يُمكن أن تسمح فيها الحوادث ـ التي تُسيطر على الإرادات ـ لمن يخلفون الوزراء المُطاح بهم بأن يُغيّروا شيئًا في سياسة من سبقوهم.

من وجهة النظر الديمقراطيّة، يبدو مبدأ الخدمة الإلزاميّة الشّاملة الذي يستبدل كلّ السكّان الأصحّاء في بلدٍ ما بالجيوش الصغيرة التي كانت معروفة قديمًا، مبدأً مثاليًّا للغاية. الحقّ أنّه يُفضي، في الممارسة، إلى حروب إبادة، ومن ثَمّ، إلى القضاء على الديمقراطيّات التي أوجدت هذا المبدأ.

سوف يُلفي العصر الحديث نفسه مجبرًا على جعل الناس الذين يُطالبون بالمساواة يعيشون بعضهم مع بعض، في حين أنّ تقدّم الحضارات، على غرار تقدّم الطّبيعة، سيتحقّق من خلال تفاوتات مستمرّة فحسب.

ربّما كان المؤرّخون ليتفقوا في ما بينهم لو أنّ الحوادث لا تتضمّن سوى وجهٍ واحد، لكن لمّا كانت تتضمّن أوجهًا كثيرة، قابلة لتأويلات مختلفة، فإنّ هذا الاتّفاق يغدو مستحيلًا.

في هذا السياق، تكشف كتب التاريخ بخاصّة عن معتقدات مؤلّفيها.

إذا كان التّاريخُ علمًا تخمينيًّا، فذلك لا يعود إلى معرفتنا الضّعيفة بالحوادث وحسب، بل يعود كذلك إلى كون المشاعر التي تُحدّده تبقى مجهولة.

بهذا المعنى، تبدو بعض الحوادث غير مفهومة، مثل مذبحة سان ـ بارتيميلي،[1] ذلك بأنّنا لا نستطيع أن نختبر بعد المشاعر التي ولّدتها. ينبغي لنا أن نمتلك ذهنيّة العصر كيف نفهم الحماسة التي أثارتها هذه المذبحة في أوروبا الكاثوليكيّة. لقد سُكّت ميداليّات كثيرة احتفالًا بالحادثة، وتحديدًا من قِبل غريغوريوس السادس عشر.[2] الحقّ أنّ

(1) مذبحة سان بارتيليمي هي مذبحة حدثت في فرنسا عام 1572 والتي ذبح خلالها بين خمسة الآلاف إلى ثلاثين ألف بروتستانتي فرنسي على يد السلطات الكاثوليكية والمتعصبين من الكاثوليك حيث كان الهدف منها القضاء على البروتستانت تمامًا، وذلك بأوامر من الملك شارل التاسع ووالدته كاترين دي ميديشي خوفًا من سطوة وانتشار البروتستانتية. بطبيعة الحال ما زالت هذه الحادثة موضع تشكيك من قبل كثيرين، وفي طليعتهم لو بون.

(2) البابا غريغوري السادس عشر (1765ـ1846) ولد باسم بارتولوميو ألبرتو كابلاري. دُعي باسم ماورو كونه عضوًا في رهبانية الكملدوليين، وكان بابا الكنيسة الكاثوليكية 1831 ـ 1846. كان محافظًا وتقليديًا بشدة، وعارض الإصلاحات الديمقراطية والتحديثية في الدول البابوية وأنحاء أوروبا كافة، حيث رأى فيها جبهات يسارية ثورية، وسعى إلى تعزيز السلطة الدينية والسياسية للبابوية. يُظهر الفاصل الزمنيّ

اللوحات التي رسمها هذا البابا من أجل تخليد التفاصيل تُعرَض على الدوام في الفاتيكان.

حقيقة الأمر أنّ الروايات التاريخيّة غير مؤكَّدة إلى حدّ أنّنا نُصادِفُ فيها الأخطاءَ نفسها تتكرّر إلى ما لا نهاية. أكّد بعض المؤلّفين أنّ الإمبراطوريّة البيزنطيّة شكّلت حقبة انحطاط، فقام كلّ الكتّاب بتكرار ما قالوه. لقد احتجنا إلى مصادر التبحّر العلميّ الحديث كي نثبت أنّ الإمبراطوريّة البيزنطيّة امتلكت على امتداد ألف عام أكثر الحضارات إشراقًا عبر التّاريخ.

لقد رأينا بحقّ أنّ الحروب الحديثة دمّرتِ المنتصِر أكثر ممّا دمّرت المهزوم.

مع ذلك، ينبغي لنا ألّا نعتبر هذه الحروب غير مجدية، ذلك بأنّ بعض المعارك تكفي أحيانًا من أجل تغيير شروط وجود شعبٍ بأكمله. فاليابان لم تُصبح قوّة عظمى إلّا من خلال حربها مع روسيا. وتركيا استعادت قوّتها القديمة من خلال حربها مع اليونان بعد أن كانت مُهَدّدة بالزوال. وبفضل الحرب أيضًا انتقلت الهيمنة العالميّة من ألمانيا إلى إنكلترا.

في السياسة، تخلق المبادئ النظريّة المستنبطة من العقل المحض الكوارث بسهولة تامّة. قاد مبدأ التّوازن ـ النّاجم عن عمل القرون البطيء ـ أوروبا إلى حالة من الثّبات. أمّا المبدأ النظريّ الجديد المتعلّق بالقوميّات فسيقودها حتمًا إلى حروب متكرِّرة حتّى تنشأ توازنات جديدة.

بين تاريخ وقوع المذبحة واحتفاء البابا بها حدّة الخلافات والانقسامات الدينيّة التي امتدت قرونًا طويلة.

تتفوّق الاتفاقات المؤقّتة على التّحالفات لأنّ التّحالف، مهما كان شكله، لا يؤدّي إلى اختفاء المصالِح التي ولّدته.

تكمن موهبة المؤرّخين الذين يتمتّعون بمكانة مرموقة في جعل ما هو مستبعَد الحدوث في التاريخ أمرًا محتملًا.

تكفي اكتشافات السيكولوجيا كي تُبيِّنَ أنّ التاريخ التقليديّ هو سرد الحوادث التي ما زالت غير مفهومة من قِبَلِ المؤلّفين والكتّاب الذين يروونها.

لا يبدو أنّ دراسة التاريخ قد أعطت المؤرّخين مَلَكة توقّع كبيرة. نحن نعلم وفق أيّ حماسةٍ صاغ قديمًا عددٌ كبير من الأساتذة، ولا سيّما رينان، أمنيّاتٍ من أجل تحقيق وحدة ألمانيا، هذه الوَحْدة التي كلّفتنا حَرْبَي 1870 و1914.

الفصل السّابع

الذّكاء، والشّخصيّة، والتّربية

1 ـ سوء التّفاهم وصراع الذّهنيّات

يُمكن الكلماتُ نفسها أن تُوحيَ بأفكار مختلفة، ذلك بأنّ وَحدة اللغة لا تستتبع على الإطلاق وَحدة الأفكار. وعليه، يُسيطر سوء التّفاهم على العلاقات بين أفرادٍ يختلفون من حيث الجنس، والتربية، والعرق.

كيف نأمل في وَحْدة فكر عندما نرى أكثر المصطلحات المجرّدة شيوعًا مثل اللّه، والنّفس، والطّبيعة، والحريّة، إلخ، تُشير إلى تصوّرات مختلفة للغاية تبعًا لذهنيّة الكائنات البشريّة التي تسمعها؟

إنّ إرادة تفسير شعور أو معتقد، انطلاقًا من وجهة نظر عقلانيّة، يعني الإحجام عن فهمها. يُمارس العنصر العقلانيّ، الذي يظهر دوره فعّالًا للغاية في نشأة الاكتشافات العلميّة، تأثيرًا ضعيفًا في حياة الشّعوب.

إلى ذلك، يتفاوت فهمُ قانونٍ، ومؤسّسةٍ، ومعاهدةٍ، تبعًا للأهواء، والمعتقدات، والأحكام المسبقة الخاصّة بكلّ حقبةٍ من الحقبات التاريخيّة، وتبعًا لتفسيرات المؤرّخين التي تتغيّر باستمرار.

يَظهر الشّباب على الدوام غير متسامِحين، لأنّهم يؤمنون بسهولة إصلاح ما يصدم منطقهم العقلانيّ، لا سيّما أنّه لا يملكون حِسًّا بالإمكانات ولا بالضرورات. ينبغي التّفكير طويلًا قبل اكتشاف أنّ هذا المنطق لا يقود العالَم.

الحقّ أنّ القصص الخرافيّة، والأساطير، والأعمال الفنيّة، والروايات هي أصدق من كتب التاريخ. إنّها تُعبِّر عن حساسية[1] حقبة ما، في حين أنّ لغة المؤرّخين العقلانيّة لا تُعبّر عنها البتّة.

ينبغي لرأينا عن الأشياء أن يتغيّر حتمًا مع تطوّر هذه الأشياء. وحده الجاهل يملك آراء لا تتبدّل.

إذا كان سوء التّفاهم يُسيطر على العلاقات بين الشّعوب، فذلك لأنّ غالبيّة المسائل تستتبع وجهات نظر مختلفة. فالعناصر العقلانيّة، والشعوريّة، والسياسيّة لا تملك مِعيَارًا مشتركًا في ما بينها.

يُولد التّعاطف بسهولة بين أمم بعيدة لا تعرف بعضها بعضًا. لكن منذ اللحظة التي تتواصل فيها، تبرز تباعداتها لجهة المشاعر، والأفكار، والمعتقدات، ويختفي كلّ تعاطف.

في ظلّ تنامي ترابط الشّعوب الاقتصاديّ، ستكفّ أوروبا سريعًا عن أن تكون مركز العالَم. وهي عادت لا تكون كذلك عسكريًّا مذ أثبتت التّجربة

---

(1) حساسية: Sensibilité: للحساسية عدّة معانٍ، «أوّلها قوّة الإحساس، أو مجموع العمليّات الحسيّة التي تُمكّن المرء من تمثّل الأشياء، وهي بهذا المعنى مرادفة للإدراك الحسيّ... وثانيها: قوّة الشّعور بالظواهر الوجدانيّة (الانفعاليّة) أو مجموع هذه الظواهر...». انظر جميل صليبا، المعجم الفلسفيّ، مرجع سابق، الجزء الثاني، ص. 472.

أنّه بإمكان أيّ جيش أن يجتاز المحيط بسهولة تامّة. وهي عادت لا تكون كذلك عِلميًّا مُذ أصبحَتِ ابتكارات العالَم الجديد توازي اكتشافات العالم القديم. وعادت لا تكون كذلك اقتصاديًّا مُذِ انتقل القسم الأكبر من الذّهب الأوروبيّ إلى أميركا.

من الصّعب كذلك العيش مع أُناسٍ لا يُغيّرون أفكارهم على الإطلاق، ومن الصّعب العيش مع أُناسٍ يُغيّرون أفكارهم باستمرار.

خلاصة القول إنّ حوادثَ مثل حوادث الحرب الكبرى يُساء فهمها على الدّوام، عندما نعزلها عن أسبابها الماضية، وعن نتائجها المستقبليّة.

2 ـ الطّبع والذّكاء في حياة الشّعوب

نادرًا ما يعترف الإنسان بالمشاعر التي تقوده، ناهيك بكونه لا يعرفها على الدّوام. يخال الثوريّون المتطرّفون، الذين يُشكّل الحسد والكراهية خيرَ مُساعِدَيْنِ لهم، أنّهم مدفوعون برغبة تأسيس مملكة العدالة والسّعادة.

لا تدوم الأخطاء الفكريّة، بصفة عامّة، طويلًا. على العكس، تدوم الأخطاء ذات الأصل الشّعوريّ طويلًا، وتنجح في بعض الأحيان في زعزعة العالَم.

من بين العوامل الأكثر تأثيرًا حاليًّا في حياة الشّعوب، يبرز الحسد بوصفه الأقوى، وحبّ القريب بوصفه الأضعف، في حين أنّ الرّجاء هو الأكثر غموضًا.

تُمثّل الصّداقة شعورًا ضعيفًا، لكنّه شعور مُستمرّ، بخلاف الحبّ الذي هو شعور قويّ، لكنّه لا يدوم طويلًا. بدوره، يُشكّل الحسَد، الذي سُرعان

ما يغدو دوره الاجتماعيّ كبيرًا، واحدًا من المشاعر النادرة التي تمتلك في الوقت نفسه القوّة والاستمراريّة.

الواقع أنّ العثور على ألف رجل مستعدِّين للخضوع أسهل بكثير من العثور من على رجل واحد قادر على أخذ زمام المبادرة.

إنّ متعة القتل، التي تُشجِّعُ الصيّادين، كبيرة جدًّا إلى حدّ أنّها تُقَدَّم قبل أيّ شيء إلى الحكّام في أثناء زيارتهم بلدًا أجنبيًّا.

نحن لا نَتَذَمَّر أبدًا من رؤية النِّفَاق يحكم النّاس. والحال أنّ العالَم سرعان ما يتحوّل إلى جحيم، إذا نُبِذ النّفاق.

لقد خِلنا قديمًا أنّه من شأن العِلم أن يُلَطِّف الأخلاق. على العكس، أثبتت التّجربة أنّ العلم جعل الحروب أكثر وحشيّة وبطشًا ممّا كانت عليه في الماضي.

الحقّ أنّنا لا نملك بعد وسيلة قياس تُمكّننا من قياس المشاعر. ما زال يتعيّن على الانتقال من الكيفيّ إلى الكميّ، الذي غيَّر العلوم كلّها، أن يتحقّق في دائرة الانفعاليّ.

بعبارة أوضح، إذا توصّلَتِ العلوم إلى اكتشاف جهاز لقياس المشاعر، والأهواء، والإرادات، فسوف يكون احتساب سلوك الإنسان، في ظرف ما مُعطًى، سهلًا للغاية تمامًا كما هي الحال بالنّسبة إلى احتساب مسار كوكب.

الحضارة الحقيقيّة هي حضارة المشاعر، قال أحد اليابانيّين. يُمكننا أن نُضيف: إذا كانَتْ بضع سنوات من التّعليم الجامعيّ كفيلةً بتزويد المتعلّمين بقدرٍ كافٍ من الحضارة الفكريّة، فإنّه ينبغي انتظار فترة أطول بكثير من أجل جعل المشاعر حضاريّة. لقد أظهَرَتِ الأعمالُ الوحشيّة

والتدميريّة التي ارتكبها الألمان في خلال الحرب مرّة جديدة إلى أيٍّ حدّ تبقى حضارة الذّكاء بعيدةً عن حضارة المشاعر.

لا تكمن الرّكيزة الأساسيّة لعَظَمة أيّ شعب في عدد سكّانه، ولا في توسّع أراضيه، ولا في عدد مدافعه، بل تكمن في قوّة طَبْعِه.

حقيقة الأمر أنّ إرادة قويّة هي أنفع بكثير في حياة الشّعوب من تعليم قويّ يُعطى لإرادة ضعيفة.

بعيدًا من أن يكون إثباتًا للطّبع، يُشكِّل العنف غالبًا مَظْهرًا من مظاهر الضّعف. فالإنسان الضّعيف يظهر عنيفًا في بعض الأحيان كي يُخفي ضعفَه.

يغدو الكائن، الذي لا يعرف كيف يُسيطر على دوافعه الغريزيّة بسهولةٍ، عبدًا لأولئك الذين يقترحون عليه أن يُشبعها.

إلى ذلك، ينبغي المغامرة في جميع القضايا البشريّة من أجل تحقيق النجاح. وعليه، تتوقّف النجاحات الكبرى على التقويم الصّحيح لفرص الرّبح والخسارة.

لقد أثبتت الكثير من حوادث الحرب الأخيرة أي كوارث يُمكن أن يتسبّب فيها التردّد وغياب المبادرة. لقد جَرَى الاعتِرَافُ أمام البرلمان الإنكليزيّ بأنّه كان يُمكن للحرب أن تكون قصيرةً للغاية، لو قاد السّفنَ الحربيّةَ التابعة للحلفاء، منذ بداية الأعمال القتاليّة، أميرال جريءٌ بما يكفي ليدخلَ إلى القسطنطينيّة كما فعل الألمان. في محاولة لإصلاح هذا القصور في الطّبع، لقيَ مئةُ ألف شخص حتفهم عبثًا في حملة الدردنيل.[1]

(1) حملة جاليبولي أو حملة الدردنيل أو معركة جناق قلعة هي حملة عسكرية شنتها قوات بريطانية وفرنسية مشتركة خلال الحرب العالمية الأولى بهدف احتلال

يحدث ألّا تتمكّن القدرات الحقيقيّة في الحضارات المعقَّدة، حيث تُثير أقلّ مهنة منافسات متعلّقة بالذاكرة الإقصائيّة، من التحرّر من تلك الحدود المصطنعة. وتنجم عن ذلك خسارة في القوى، وتتولّد كراهيات تجاه طبقات مجهولة في البلدان الجديدة، مثل أميركا، إذ تُتَجاهَل تلك العوائق.

لا يُمكن شعورٌ قويّ أن يُسيطِر إلّا من خلال شعور أكثر قوّة. بهذا المعنى نفهم لماذا يستخدم الغزاة ومؤسّسو المعتقدات سياسة التّرهيب. إلى ذلك، غالبًا ما وجدت القوانين المدنيّة أو الدينيّة في التهديدات المرعبة سندًا لها.

من أجل التأثير في الكائنات المحيطة بنا، تبدو معرفةُ عيوبها في بعض الأحيان أكثر فائدة من معرفة خِصَالها المميَّزة.

العاصمة العثمانية إسطنبول، دارت معارك الحملة في شبه الجزيرة جاليبولي على مضيق الدردنيل عام 1915، باءت جهود الحملة بالفشل وقُتل ما قُدّر عدده بحوالي 55 ألف جندي من قوات التحالف (بريطانيا، أستراليا، نيوزيلندا، فرنسا) وحوالي 90 ألف جندي عثماني ومئات الآلاف من الجرحى من الطرفين.

تُعرف هذه المعركة في تركيا باسم چنق قلعة ساواشی (بالتركية: Çanakkale Savaşı) كونها وقعت في منطقة چنق قلعة. وفي بريطانيا، تسمى بمعركة مضيق الدردنيل.

كانت المعركة تهدف إلى غزو إسطنبول عاصمة الدولة العثمانية ومن ثَم الدخول إلى الجزء الشمالي الشرقي من تركيا لمساندة روسيا ضد القوات الألمانية، حيث طلبت روسيا من فرنسا وبريطانيا مساعدتها ضد القوات الألمانية في الجانب الشرقي بعد أن كابدت القوات الروسية خسائرَ كبيرة أمام الألمان. والمعركة هي نصر للعسكرية العثمانية حتى يومنا هذا، وكانت خيبة أمل وهزيمة في سجل الجيش البريطاني. (انظر ويكيبيديا).

وقد أشرف القائد مصطفى كمال على هذه المعركة من الجانب العثماني، وتعد معركة جاليبولي نقطه سوداء بالتاريخ العسكري البريطاني بعد هزيمتهم بها أمام القوات العثمانية.

يعود واحد من أكبر أسباب ضعف الشّعوب اللاتينيّة إلى أنّ تعيين كلّ جهازهم الإداريّ يتمّ استنادًا إلى امتحانات جامعيّة تُثبت ذاكرة المرشّحين، لكنّها لا تستند أبدًا إلى مزايا الشّخصيّة التي تُحدِّد قيمة الإنسان في الحياة.

3 ـ الذكاء، والمشاعر، والحدس

الذّكاء والمشاعر هما صديقان حميمان لا ينفصلان، ومع ذلك لم يتّفقا بعضهما مع بعض، منذ فجر التاريخ، إلّا نادرًا.

تطوّرَ الذّكاء بشكل ملحوظ على امتداد العصور، في حين أنّ المشاعر لم تتغيّر إلّا قليلًا. لقد نجم عن ذلك تباينٌ متنامٍ بين المنطق الشّعوريّ الذي يُحَدِّد السّلوك، والمنطق العقلانيّ الذي يبحث عن توجيهه، لكنّه نادرًا ما ينجح في ذلك.

الواقع أنّ الاختلافَ شاسِعٌ بين النّاس في مجال الذّكاء. ففي المراحل الانفعاليّة والصوفيّة، حيث تتبلور أسباب أفعالنا، يختفي التّفاوت. لهذا السّبب يُمكن لبلشفيّ لا يملك ثقافة، ولأستاذ مثقّف أن يقبلا أوهامًا متماثلة.

بعبارة أخرى، يُوضَع العقلُ بسهولة في خدمة المشاعر، في حين أنّ المشاعر نادرًا ما توضَع في خدمة العقل. يُفسِّر هذا القانون السيكولوجيّ أصل الحروب الذي لا تستطيع أي حجّة عقليّة أن تُعلّلها.

لقد أمكن للكائن، الذي لم ينجح الذّكاء في السيطرة على حساسيته، أن يغدُوَ فنّانًا متميِّزًا، وكاتبًا لامعًا، ولكن ليس رجل سياسة من الطراز الرفيع.

وبعد، نادرًا ما يغدو اعتقادٌ مؤسَّسٌ على العقل فقط دافعًا للفعل. الحقّ أنّ التأثيرات الصوفيّة والشّعوريّة ضروريّة من أجل القيام بأيّ فعل.

إلى ذلك، يتقدّم الإنسان عندما يشرع في فصل عقله عن أهوائه. يتضاعف هذا التقدّم عندما يُصبح العقل الإنسان قويًّا بما يكفي ليُسيطر على شعور راهن، وذلك بمعارضته بتأثير شعور قديم.

استغرقَ اكتسابُ المرءِ القدرةَ على السيطرة على مشاعره قرونًا طويلة من الجهود المبذولة. ومع ذلك، بقيت شعوب كثيرة في العصر الذي باع فيه عيسو بكوريّته مقابل صحن عدس.[1]

توصّلت النّساء، بفضل نمط المعرفة المـُصَنَّف حدسًا، إلى تخمين التبعات التي لا يتبيّنها المنطق العقلانيّ بسهولة.

الواقع أنّه بإمكان العقل وحده أن يُظهر ما إذا اليقينيّات الحدسيّة تُشكِّل حقائق أو أخطاء. الذّكاء إذًا هو المتمِّم الضّروريّ للحدس.

إنّ الحدوس الذّهنيّة هي التي تُوجِّه الاكتشافات في ميادين الفنّ والفكر. تُمثِّل الحدوس الشّعوريّة المرشد الحقيقيّ في ظروف الحياة الصّعبة.

نعترف بأنّ غبارًا من النّاس غدا أمّة عندما شكّلَ فجأة، إبّان الحوادث الكبرى مثل الحرب الأخيرة، حدوسًا جماعيّة قادت المواطنين جميعًا إلى اتّباع السّلوك عينه على الرّغم من تباعد معتقداتهم.

---

(1) عيسو: اسم عبري معناه «شعر» أو «مُشعِر»، وهو ابن إسحق ورفقة Rebekah، وتوأم يعقوب Jacob (تك 25: 21ـ26). وسمي كذلك لأنه ولد أحمر كفروة شعر (تك 25: 25). وقد هوى الصيد منذ صغره. وكان يعود إلى البيت دومًا ومعه ما يصطاده ويقدم منه لأبيه. وعاد ذات يوم من الحقل جائعًا، ووجد أخاه يعقوب يطبخ عدسًا (مجدرة) فاشترى صحن العدس ببكوريته. وبسبب العدس الأحمر لقب عيسو بـ«أدوم» (تك 25: 27ـ 24) وورد في وثائق مدينة نوزو في القرن الخامس عشر ق. م. أن رجلًا باع بكوريته لأخيه بخروفين.

تُشكّل العادة، التي تسمح بتوجيه الحدوس، وكبح جماح الدوافع، مرشدًا للحياة أكثر وثوقًا من كلّ تعاليم الكتب.

4 ـ التّعليم والتّربية

أكّد أحد الخطباء المشهورين، في معرض نقاشات حول إصلاح التّعليم، أنّ «الهلينيّة[1] تُعطي الرّوح توازن معبَدٍ وتناسقه». من دون شكّ، لا يكفي تناسق الرّوح هذا من أجل خلق التوازن في المشاعر، ذلك بأنّ الانقسامات المستمرّة بين اليونانيّين القدامى قادتهم في نهاية المطاف إلى العبوديّة.

---

(1) الحضارة الهلينية (وهي مستمدة من كلمة هـلين، وهي الاسم العرقي الذي يطلقه اليونانيون على أنفسهم) بجدهم الأسطوري َهيلين Hellen وبلادهم التي عرفت باسم بلاد هيلاس Hellas أو الهيلاد Hellad، إضافة إلى تسمية حضارة دولة المدينة (Polis) (City ـ State) لارتباط هذه الحضارة سياسيًّا وحضاريًا بعدد من المدن التي كانت كل واحدة منها مع ريفها تعدّ دولة بكل معاني الكلمة، وكذلك حضارة العصر الكلاسيكي Classical وهي تسمية أطلقها المؤرخون الأوروبيون والغربيون عمومًا على هذه الحضارة، إذ عدّوا أنفسهم ورثة هذه الحضارة التي تميزت بإنجازاتها التاريخية الرائعة. امتدت هذه الحضارة منذ أوائل القرن الرابع قبل الميلاد وحتى القرن الخامس الميلادي، وفى هذه الحقبة أصبحت الثقافة الاغريقية ملكًا مشتركًا بين جميع بلدان البحر المتوسط، وكانت اليونانية لغة العلم في ذلك الوقت. والهيلينستية هى ثقافة مركبة من عناصر يونانية وشرقية حمل فيها الإغريقيون إلى الشرق الفلسفة ولقح فيها الشرقيون حضارة اليونان بروحانية الشرق ونظمه وعلمه. يقول بعض المؤرخين مثل تارن في كتاب الحضارة الهيلينستية إن الحضارة الإغريقية تنقسم إلى مرحلتين: الأولى هلينيك أي المرحلة اليونانية البحتة، وتضم مرحلتي النشأة والنضج والازدهار وتشمل العالم اليوناني وحضارته منذ الغزو الدوري وحتى الإسكندر الأكبر. والمرحلة الثانية هى هيلينستك أي المرحلة الهيلينيستية وهى مرحلة يونانية متأخرة وتشمل البقاع التى تألفت منها إمبراطورية الإسكندر وتشمل بلاد اليونان والممالك الشرقية بعد غزو الإسكندر لها. انظر ويكيبيديا.

تستلزم كلّ مرحلة من مراحل حضارة ما ـ التي تختلف حتمًا عن المراحل التي تسبقها ـ تربية تتكيّف مع الحاجات الجديدة، والذهنيّات الجديدة. والحال أنّ فرض الثقافة الإغريقيّة ـ اللاتينيّة التي تعود إلى العالم القديم وإلى العصر الوسيط على شباب اليوم هو لَعَمْرُنا تجاهل مفرط لهذه الحقيقة المبتذلة.

وعليه، إنّ نقائِصَ شعبٍ بعينه لا تتجلّى بوضوح إلّا بالنّسبة إلى الغرباء، هي نقائص لا يُمكن تصحيحها على الإطلاق. إلى ذلك يعلم الجميع قصور طرائقنا الجامعيّة، لكن بالنّظر إلى أنّنا لا ندركها البتّة، فإنّ أيّ إصلاح حقيقيّ لن يكون ممكنًا.

بعبارة أخرى، يُمكن مقارنة الغذاء العقليّ الذي يمنحه التّعليم بالغذاء الماديّ. ليس ما نأكله هو الذي يُغذّينا، بل ما نهضمه.

بهذا المعنى، يتغيّر عدد كبير من أفكارنا الاجتماعيّة عندما نكتشف أنّ عاملًا ماهرًا يتفوّق ذهنيًّا على شخص محدود الذّكاء حاصل على البكالوريوس.

ليس ثمّة تربية مفيدة سوى تلك التي تُنمّي المهارات الخاصّة لكلّ كائن. والحال أنّنا نحصل على كلّ ما يُمكن لأيّ تَلميذ أن يُعطيَه من دون أن نطلب إليه القيام بعمل غير مفيد.

وبعد، عندما نفرض على التلاميذ جميعًا تعليمًا مماثلًا، نحصل على الحدّ الأدنى من الفعاليّة في مقابل الحدّ الأقصى من الجهد.

من بين الأخطاء اللاتينيّة الكثيرة التي أثقلت حياة مستعمراتنا برز خطأ الاعتقاد بأنّ التعليم التقليديّ سمح سريعًا بتجاوز المراحل التي تفصل بين

البربريّة والحضارة. يُمكن الزنجيّ أن يتلقّى تربية تقليديّة كاملة من دون أن يغدو، مع ذلك، إنسانًا متحضّرًا.

أظهرَتِ التّجارِب، التي سمحت باستبدال رأس حشرة من جنس مختلف برأس إحدى الحشرات، أنّ أنثوات الحشرات التي اتّخذت رأس ذكر اكتسبت غرائزَ الذّكور. يُمكننا أن نتساءل ما إذا كانت التربية الذكوريّة التي تُعطى للإناث لن تحقّق هذا الاستبدال.

الواقع أنّ الطرائق الخاصّة بثقافة الذّكاء متعدّدة. منْ أجل التأثير في الشخصيّة لا توجد إلّا طريقة واحدة: ممارسة الخصال المـُراد تطويرها. بعبارة أخرى، لا تُكتسب المبادرة، والمثابرة، والإرادة بأيّ طريقة أخرى.

إلى ذلك، يُمكن نظامنا التّعليميّ أن يتغيّر عندما نُقرّ، بصفة عامّة، بأنّ الكتب لا تكفي من أجل تنشئة الشّخصيّة، وصقل الأخلاق، وتهذيب الذّكاء.

لذلك كان الإنكليز والأمريكيّون محقّين عندما عزوا إلى الألعاب الرياضيّة تأثيرًا تربويًّا قويًّا. هذه الألعاب تُعلِّم، تحديدًا، فنّ الخضوع، الذي لا يُمكن من دونه اكتساب فنّ القيادة.

الحقّ أنّ الشّعوب التي اكتشفت أنّ تنمية الشّخصيّة أهم من تنمية الذكاء حقّقت تقدّمًا ملحوظًا أكثر من الشّعوب التي لم تكتشف هذا الأمر. الجدير بالذّكر أنّ الجامعات اللاتينيّة لم تتوصّل إلى هذا الاكتشاف بعد.

وبعد، كمنت براعة بروسيا في تحويل غبار من الأفراد الضّعفاء، المتحدِّرين من أعراق مختلفة، إلى كتلة جماعيّة قويّة للغاية. ويعود السّبب في ذلك إلى نظامها التربويّ العمليّ، وإلى انضباطها العسكريّ.

في هذا السّياق، عَزَتْ صحيفة ألمانيّة، بعد أن لاحظت اختفاء النّزاهة المهنيّة، واللباقة من ألمانيا، منذ انعقاد السّلام، عزت هذا الانحطاط إلى كون الشّباب الألمانيّ عاد لا يخضع للانضباط العسكريّ.

بوجيز العبارة، يُمكن القول بأنّ نظامًا تربويًّا أو تعليميًّا هو نظام مثاليّ إذا نجح في خلق مبادرات تلقائيّة لا واعية مفيدة. يملك الذّكاء أيضًا خَدَمًا طَيِّعين مستعدّين لتنفيذ أوامره. لكن إذا لم يُعَدُّوا بشكل جيّد فإنّهم لن ينفّذوا هذه الأوامر على الإطلاق.

يُمكن الانضباط أن يحلّ محلّ عدد كبير من الخصال. لكن ما من خَصْلَة قادرة على أن تحلّ محلّ الانضباط.

حقيقة الأمر أنّ الذّكاء هو طلاء يُغطّي المشاعر لكنّه لا يُحوّلها البتّة.

إلى ذلك، يقضي الزّمن والعادة على الحبّ سريعًا، لكنّهما يشدّان، على العكس، من عضد الصّداقة، حتّى وإن خَلَفَتِ الحبَّ في بعض الأحيان.

خلاصة القول: إنّ الحكمَ من دون إرادة غيرُ مفيد، تمامًا كما هي حال الإرادة من دون حكم.

الفصل الثّامن

التأثيرات الواعية واللا واعية في حياة الشّعوب

1 ـ الحياة الواعية والحياة اللا واعية

تُمثِّل الحياة اللا واعية بالنّسبة إلى الحياة الواعية ما يُمثّله جبلٌ بالنّسبة إلى حبّة رمل، والبحر العميق إلى الأمواج التي تُغطّيه. الحقّ أنّ دراستها توضح بالفعل دوافع السّلوك، على هَدْيِ ضوء جديد تمامًا.

وعليه، ينبغي للإرادة اللا واعية أن تُمارِس تأثيرًا كي تدفع النّاس باتّجاه الفعل. بعبارة أوضح، يُمكن النّفس الواعية أن تقتنع عن طريق المحاججة، لكنّ الاقتناع وحده لا يكفي من أجل القيام بأيّ تصرّف.

بهذا المعنى، تبقى أسباب بعض الوقائع التاريخيّة، وأصول الحرب الكبرى تحديدًا، عصيّة على الفهم عندما نتجاهل الاختلافات التي تفصل الإرادة الواعية عن الإرادة اللا واعية.

يُمثّل استبدال الفكر الجماعيّ بالفكر الفرديّ خاصيّة من خصائص العصر الحاليّ. إلى ذلك، يتقلّص يومًا بعد يوم الأشخاص القادرين على ابتكار أفكار شخصيّة. لقد تلاشوا تمامًا في المجال السياسيّ.

وبعد، من شأن الاستقلال الجزئيّ الذي يتمتّع به الفرد المعزول أن يغدو محدودًا للغاية، لا لشيء إلّا لأنّ التأثيرات الجماعيّة تؤثّر بعمق في اللا وعي.

إلى ذلك، لا تحول سوء النيّة دائمًا دون تطابق الأفعال مع الأقوال. تُترجِم الأفعال الهامّة الدوافع اللا واعية المتأتية من روح الأسلاف، في حين أنّ الأقوال تتأتّى من الروح الفرديّة الواعية. وعليه، لم ينضمّ الاشتراكيّون ـ الذين أقسموا على الانسحاب في حال نشوب حرب ـ في العام 1914 إلى الجبهة من دون تردّد، إلّا لأنّ روح العرق اللا واعية التي تُوجِّه سلوكهم كانت أقوى بكثير من العقل الواعي الذي استلهموا منه خطاباتهم.

في السياسة، غالبًا ما توجّه الدّوافع اللا واعية الأفعالَ التي يخال القائمون بها أنّ العقل وحده هو الذي أملاها عليهم. يعود مشروع تقسيم تركيا، الذي أثار سُخط العالم الإسلاميّ برمّته ضدّ إنكلترا، إلى وزير إنجليزيّ ورعٍ استرشد، في لا وعيه، بفكرة انتقام الصّليب من الهلال.

بعبارة أخرى، وَلّدتِ الاضطراباتُ الكبرى أفكارًا لا واعية حلّت محلّ الأفكار التي كان يُسترشَد بها عادة، وأفضت إلى تحرّكات اجتماعيّة غير متوقّعة.

بهذا المعنى، تَنفذ عمليّة ذهنيّة واعية، ومتكرّرة على نحوٍ كافٍ، إلى مجال اللا وعي، وتُصبِح عادةً. إلى ذلك، تنتهي هذه العمليّة إلى تشكيل خاصيّة من خصائص العرق، إذا عرفَتِ الأجيال المتعاقبة كيف تحتفظ بها.

في هذا السياق، لا يُفضي القرار المتبصِّر دائمًا إلى الفعل المتوخّى.

ذلك بأنّ غالبيّة الناس تتصرّف، على العكس، تحت تأثير الدوافع اللا واعية حيث يُستَبعَد أيّ تبصّر.

ليس ثمّة انضباط حقيقيّ سوى الانضباط الذي يغدو لا واعيًا. والحال أنّ الانضباط الذي يستند إلى الإكراه فقط، يفتقر إلى القوّة، ولا تُكتب له الاستمراريّة.

تملك العادات اللا واعية قوّة لا تمتلكها المبادئ على الإطلاق.

2 ـ الحياة الجماعيّة ودور القادة

يملك الأفراد والجماهير ذوو الذّهنيّة المتدنية الطّبعَ نفسه، ونعني التأثّر القويّ بالحوادث الراهنة، في مقابل التأثّر الضّعيف بتبعاتها، وإن بدت هذه التبعات حتميّة.

يُتَعَاطى مع الخطأ الفرديّ على أنّه حقيقة منذ اللحظة التي يغدو فيها جماعيًّا. عندئذ ما من حجّة عقليّة يُمكن أن تزعزعه.

يعزو الجمهورُ التائهُ، من جرّاء الأجهزة المعقّدة للحضارات الحديثة، والمَحُوط بنتائج لا يفقه أسبابها، الحوادث التي لا يُمكنه أن يتبيّن قوانينها إلى الإرادات الخاصّة. وعليه، غالبًا ما لا تكون لثوراته أي أسباب أخرى.

يتصّرف الإنسان، في الحوادث الكبرى التي تتعلّق بحياة أيّ شعب، انطلاقًا من التأثيرات الجماعيّة. والحال أنّ أنانيّته الفرديّة تتلاشى إلى حدّ أنّه يُضحّي بنفسه من دون تردّد من أجل المصلحة العامّة.

ينقسم النّاس إلى قادةٍ ومَقودين. تتألّف الغالبية السّاحقة من المقودين. بعبارة أخرى، لا تملك الجماعة عقلًا مدبّرًا آخر سوى عقل قائدها.

إلى ذلك، يُمكن القول بأنّ المعتقدات الدينيّة والمعتقدات السياسيّة تملك آليّة الانتشار نفسها. وعليه، يكفي التأكيد، والتكرار، والمكانة، والعدوى الذّهنيّة من أجل تقديم اقتراحات لا تقاومها الجماعات إلّا في ما ندر.

تبقى الحقائق الأكثر بداهة من دون أيّ تأثير في روح الحشود عندما يُعوِزها الدعاة الذين يقومون بنشرها.

غالبًا ما تُصبِح الأوهام التي يخلقها القادة الطموحون في الروح الشّعبيّة أوهامًا مخيفة. بهذا المعنى، لو استمرّ وَهْمُ القدرات السياسيّة والصناعيّة التي خالت البروليتاريا نفسها تملكها، مع كَلّ ما تسبّب فيه من تدمير لروسيا، لَقَاد أكثر الحضارات سطوعًا إلى الهلاك.

إلى ذلك، لا يحتاج القائد الذي يحظى بمكانة وهَيْبة إلى إعطاء أيّ تبريرات. فالأوامر التي أُرسلت إلى المؤتمر الاشتراكيّ الذي عُقِد في Tours من قِبَل دكتاتوريي موسكو، والتي حظيت بقبول مُجِلٍّ، قد صِيغَت بمصطلحات آمِرَة ومختصرة لا تنطوي على أيّ شرحٍ للعقيدة.

لا يُمكن العدوى الذهنيّة أن تحدث من دون تدخّل شخصيّ من قِبَل القائد. وعليه، يكفي رأي شائع، أو كلمة، أو صيغة، في بعض الأحيان، كي يُشكّل مصدرَ وحيٍ للحشود.

تسمح الذهنيّة القطيعيّة ـ التي تملكها الجماهير ـ للقادة بأن يفرضوا عليها دائمًا أيّ عقيدة. والحال أنّ أكثر المعتقدات عبثيّةً لا يُعوِزها الأتباع أبدًا.

إلى ذلك، تجاوز استبدادُ القادة ـ الذين ينتمون إلى الطبقة العاملة ـ

كثيرًا استبدادَ الطغاة الآسيويّين. إذْ لم يجرؤ أيٌّ من هؤلاء الطغاة على إصدار أمر يقضي بالإيقاف الكليّ لشبكات سكك الحديد، لمدّة شهر واحد، مثلما فرضه في إنكلترا رؤساء النّقابات، ولا على تعطيل الصّحف، لمدّة ثلاثة أسابيع، مثلما فعل بعض القادة في فرنسا.

3 ـ روح الشّعوب

تبقى الحياة السياسيّة لأيّ شعبٍ عصيّةً على الفهم عندما نتجاهل مقدار اختلاف المشاعر الفرديّة عن المشاعر الجماعيّة.

ينتهي الأمر بروحِ شعبٍ، استقرّت من خلال ماضٍ طويل، بأن تمتلك عناصر ثابتة شأنها في ذلك شأن الخصائص التشريحيّة. والحال أنّه ليس بمقدور أيّ تربية أن تُخْضِعها لتحوّلات عميقة.

إلى ذلك، تكشف معرفة شخصيّة شعبٍ من الشّعوب، وأخلاقه، والأفكار التي توجّهه، والتربية التي يتلقاها، تكشف بسهولة ما إذا كان يسير على طريق التقدّم أو على طريق الانحطاط.

ينبغي لنا أن نذكر، من بين العوامل التي تُحدِّد قوّة الأنغلوسكسونيّين، لا سيّما في إنكلترا وأميركا: ضبط النّفس، واحترام القوانين. قد يستغرق الأمر أحيانًا قرونًا طويلة من الجهود من أجل اكتساب هذه الخصال. الحقّ أنّه لا يُمكن تعلّمها من خلال الكتب.

وبعد، أثار بسمارك موجةَ غضب في فرنسا، نتيجة برقية تافهة نشرها، من بعد أن حوَّرَ معناها.[1] الواقع أنّ موجة الغضب هذه هي التي دفعت

(1) «خلال الأشهر الأولى لسنة 1870، عاد التوتر ليسود العلاقة البروسية الفرنسية

مجددًا، فإثر الانقلاب الجمهوري الفاشل بإسبانيا وفرار إيزابلا الثانية (Isabella II) إلى فرنسا أصبح العرش الإسباني شاغرًا، وعرض الملكيون الإسبان على ليوبولد (Leopold)، أحد أقرباء ملك بروسيا، تولي العرش. فاستغل بسمارك الموقف واستطاع أن يقنع ليوبولد بقَبُول المنصب، سعيًا منه إلى جر المنطقة نحو حرب بروسية فرنسية. لكن أمام الرفض والاستياء الفرنسيّ، ضغط ملك بروسيا فيلهلم الأول على قريبه ليوبولد وتخلى الأخير عن فكرة اعتلاء عرش إسبانيا. وفي منتصف شهر تموز سنة 1870، التقى السفير الفرنسي ببروسيا بالملك فيلهلم الأول عند منطقة إمس (Ems). وخلال هذا اللقاء طلب السفير الفرنسي بأدب من الملك البروسي تقديم ضمانات لتجنب تكرار أزمة العرش الإسباني وتحسين العلاقات البروسية الفرنسية وتجنب إمكانية نشوب نزاع مستقبلي. وردّ الملك البروسي فيلهلم الأول بلطف رافضًا الطلبَ الفرنسي لتتوقف المفاوضات عند هذا الحد، ويغادر الطرفان المكان في جو هادئ. وفي الأثناء، حصل المستشار البروسي على برقية حول مجريات المفاوضات، وما أسفرت عنه، فما كان منه إلا أن أحدث عليها تغييرات أسفرت عن تغيير خريطة القارة الأوروبية للأبد. خلال تلك الفترة، كتب بسمارك أن السفير الفرنسي قد هدد الملك البروسي ولوّح بخوض غمار حرب في حال عدم الحصول على ضمانات، وفي المقابل تحدى فيلهلم الأول ملك بروسيا الفرنسيين ورفض الرضوخ لشروطهم. وأقدم المستشار بسمارك إثر ذلك على نشر هذه البرقية المحوّرة في الصحف الأوروبية. وأثارت هذه البرقية المحوّرة التي نشرها بسمارك ضجة عالمية، حيث أحس كل من الفرنسيين والبروسيين بإهانة عند قراءة محتواها، وبسببها اندلعت بعد أربعة أيام فقط، أي في التاسع عشر من شهر تموز سنة 1870، الحرب البروسية الفرنسية والتي استمرت لقرابة ستة أشهر، أسر خلالها الملك الفرنسي نابليون الثالث عقب معركة سيدان (Sedan) وانتهت بإعلان قيام الوَحدة الألمانية سنة 1871». انظر:

https://www.alarabiya.net/last_page/201811/12//%D8%A8%D8%A8%D8%B1%D982%%D98%A%D8%A9_%D8%B0%D983%%D98%A%D8%A9_%D8%AF%D985%%D991%%D8%B1_%D987%%D8%B0%D8%A7_%D8%A7%D984%%D8%AF%D8%A8%D984%%D988%%D985%%D8%A7%D8%B3%D98%A_%D981%%D8%B1%D986%%D8%B3%D8%A7_%D988%%D988%%D8%AD%D991%%D8%AF_%D8%A3%D984%%D985%%D8%A7%D986%%D98%A%D8%A7

الحكومة إلى إعلان الحرب من دون أن تُكلِّف نفسها عناء تأكّد دقّة البرقيّة هذه. والحال أنّه وجب معرفة انفعاليّة الشّعب الفرنسيّ الكبيرة من أجل إنجاح عمليّة كهذه. تجدر الإشارة إلى أنّ تأثير هذه البرقيّة كان معدومًا في إنكلترا.

بهذا المعنى، لم يجرِ استعباد اليونانيّين ـ الذين سحر فكرهم وفنونهم العالَم بأسره ـ من قِبَل الرومان ـ الذين لا يملكون سوى ثقافة ضحلة، لكنّ انضباطهم نجح في توحيد النّفوس ـ إلّا لأنّهم فقدوا انضباطهم الاجتماعيّ.

في الحوادث الكبرى التي تُهدِّد وجود أيّ شعب، تَدعم إرادة الموتى، بقوّة، إرادة الأحياء. حقيقة الأمر أنّ الأمم التي لا تملك ما يكفي من الموتى ليُدافعوا عنها لا يُمكن أن تصمد البتّة. تلكم كانت هي حال روسيا عند نهاية الحرب الكبرى.

يختبر غالبيّةُ النّاس، لا سيّما عندما يُشكّلون جزءًا من الجماعة، الحاجةَ إلى من يقودهم حتّى في أبسط أفعالهم. هذه الحاجة إلى العبوديّة هي عنصر من أهمّ عناصر تقدّم الاشتراكيّة.

والحال أنّ الشّعوب تُقاد، في الغالبيّة الساحقة من أفعالها، عن طريق العادات والمعتقدات. في الظّروف التي التي لا تؤثّر فيها هذه الدّوافع، تُصبِح الأوهامُ، التي تخلقها مُصادفات اللحظة، هي المُرشِد الوحيد.

الحقّ أنّ الاكتشافات الفرديّة تُغيِّر الحضارات، في حين أنّ المعتقدات الجماعيّة تحكم التّاريخ.

تكمن القوّة الكبرى للقرارات الجماعيّة في السّلطة الصوفيّة التي

يُمارسها العدد على نفس الجماهير. لهذا السّبب يُرْغَمُ رؤساءُ الدّول على إظهار أنفسهم كأنّهم يعتمدون على الرأي العام.

إلى ذلك، تُعتبَر العدوى الذهنيّة، النّاجمة عن تأثير البيئة، أساسًا من أكثر أسس التربية الأخلاقيّة فعاليّة. فالرّذيلة كما الفضيلة تنتشر أيضًا عن طريق العدوى.

4 ـ تَرَجُّح الرّأي

الحقّ أنّ القوانين المتعلّقة بنشأة الآراء هي وحدها التي تسمح لنا بأن نفهم كيف غدت ذهنيّةُ الأمريكيّين السّلميّة ذهنيّةً عدوانيّة، لا سيّما أنّهم كانوا يرغبون في البقاء على الحياد كي يُمارسوا تجارة مثمرة مع الأطراف المتقاتِلة. من دون شكّ هدّدتِ الهيمنة الألمانيّة مصالحهم المستقبليّة. لكن كيف أصبحت المصالح البعيدة هذه مرئيّة؟ الواقع أنّ حرب الغوّاصات لم تكن سوى سببٍ من أسباب تحوّل المشاعر التي حتّمت إرسال مليون جنديّ إلى أوروبا.

يُبدي النّاس جميعًا قابليّة للتأثّر، وإنْ بدرجات متفاوتة. بيد أنّ قابليّتهم هذه تبرز، بخاصّة، في المواضيع التي يجهلونها. وذلكم بالضبط ما يُفسِّر سذاجة الكثير من العلماء.

بفضل وسائل الدعاية الحالية، صار بالإمكان إطلاق رأي، أو معتقد، أو نظريّة، تمامًا كما يجري إطلاق منتج صيدلانيّ ما. بهذا المعنى، نجح الشيوعيّون الروس، نتيجة البروباغندا التي قاموا بها، في تجنيد عدد كبير من الأتباع في الخارج.

إذا كان الإعلانُ في الصّحف يُشكّل وسيلةَ إقناعٍ فعّالة للغاية، فذلك يعود إلى ندرة العقول التي تملك القوّة الكافية من أجل مواجهة سلطة التّكرار. وعليه، سرعان ما يخلق الإعلانُ اليقينَ لدى غالبيّة النّاس.

وبعد، نادرًا ما تكون التأثيرات، التي تُحدِّد صوت أيِّ ناخبٍ، ذات أصلٍ عقلانيّ. ذلك بأنّ الكراهية، والخشية، والتطلعات، هي التي تدفعه، بعامّة، إلى اتّخاذ خياره.

في المجال العلميّ، ينبغي للعالِم أن يُثبت ما يقوله كي يصَدَّق. في السياسة، تكفي خطابات الخطيب الذي يحظى بهيبةٍ ومكانةٍ من أجل خلق يقينٍ مُتَخَيَّل.

حقيقة الأمر أنّ الصّحافة تنقل الرأي أكثر مما توجّهه. وهي تهدف أيضًا إلى إيجاز آلاف الآراء المـُجزّأة الصغيرة باستخدام عبارات في غاية الدقّة، مع العلم أنّه من الصّعوبة بمكان صياغة تلك الآراء بوضوح، وذلك بالنّظر إلى الغموض الذي يكتنفها.

وبعد، إذا جرى في الأوساط العسكريّة تقبُّلُ الاعتقادِ باحترام ألمانيا حيادَ بلجيكا، فذلك لأنّ التّكرار يُحوِّل الخطأ بسهولةٍ إلى حقيقة. لقد كلّفنا هذا الاعتقاد غزوَ عشر مقاطعات.

تُنتِج الحوادث القادرة على التأثير بعنف في الحساسية الجماعيّة ما نُسمّيه «انفجار الآراء»، أي التّوجيه الفوريّ للانفعالات الجماعيّة في الاتجاه نفسه. هكذا وُلِدَت الثّورات. نذكر منها، على سبيل المثال، ثورة 4 أيلول 1870 التي أدّت إلى الإطاحة فورًا بالإمبراطوريّة. مثال ذلك أيضًا الثورة الألمانيّة التي أجبرت إمبراطور ألمانيا، وكلّ الحكّام الألمان على التنحّي مباشرة لحظة وقف القتال.

في هذا السياق، من يتخيّل أنّه بمقدور رجال الدولة أن ينقلوا إلى أفعالهم الطاقة التي تتجلّى في خطاباتهم، فهو واهم.

إذا شعرَتِ الشّعوبُ بخيبة أملٍ من حكّامها، في غالبيّة الأحيان، فذلك لأنّهم يطلبون إليهم أن يُحقّقوا ما هو أفضل، في حين أنّ رجل الدولة لا يستطيع أن يُحقّق إلّا ما هو ممكن.

تعتبر كائناتٌ كثيرة أنّ الحياة قد تغدو ثقيلةً للغاية لو لم تُعطِهِم الطبيعة مَلَكَة التكلّم من دون تفكير، والقدرة على إبداء الآراء التي تفتقر إلى كلّ أساس.

إلى ذلك، تتأتّى غالبيّة الآراء الشّعبيّة من الحاجة إلى الانتقاد بقسوة. يُمثّل الانتقاد القاسي، بالنّسبة إلى الكثير من العقول، سعادة كبيرة، بل مَصدرَ السّعادة الوحيد.

الفصل التّاسع

تطوّر الآلهة عبر التاريخ

1 ـ دور الآلهة

يُهيمن تاريخُ آلهة الشّعوب على تاريخ هذه الشّعوب. الحقّ أنّ الهيمنة هذه ظلّت كبيرة أيضًا في الأزمنة الحديثة، بيد أنّ الآلهة غيّرت اسمها. لقد حلّت محلّها الأفكار والشّعارات التي عزا عبّادُها إليها القوّةَ نفسها التي كانت تُعزى إلى الآلهة القديمة.

ما من شعب يستطيع أن يعيش من دون آلهة. الواقع أنّ مرور الزّمن، وليس العقل، هو الذي يُطيح بها أحيانًا. لكنّ عرشها لا يبقى فارغًا. لقد حلّت المسيحيّة محلّ عبادة الأصنام التي استُنفِدت، وكذلك حلّ الإيمان الاشتراكيّ محلّ المسيحيّة التي استنفِدت بدورها.

عند هذا الحدّ نتساءل: هل يُمكن أن تُكتبَ الحياة لحضارةٍ مُتَحرّرة تمامًا من التأثيرات الصوفيّة؟ حقيقة الأمر أنّنا نجهل هذا الأمر. لكن لم تبرز على سطح الكوكب، حتّى الآن، حضارة كهذه.

على الرّغم من أنّ المعتقدات الدينيّة لم تجد ما يدعمها سوى الأوهام،

فإنها كانت بمثابة دعامة للحضارات الكبرى. لقد تزعزع العالَم بأسره، سواء من أجل نشرها أو من أجل محاربتها.

لم تكنِ الآلهةُ الكبرى في التاريخ: جوبيتير، ويهوه، وبوذا، واللّه، وآلهة أخرى كثيرة عبدها ملايين النّاس، وسيعبدونها، من إبداعات الخوف، كما أراد لوكريتيوس[1] Lucrèce. لقد تحدّرت من الرّجاء، والرّجاء هو الإله الوحيد الذي لم يستطَعِ الزّمنُ أن يُزعزعه.

---

(1) يعدّ تيتوس لوكريتيوس كاروس (Titus Lucretius Carus) واحدًا من كبار الشعراء والفلاسفة الرومان. ويصنّفه بعض الدارسين ضمن الفلاسفة الأبيقوريّين. ولد نحو 99 ق. م. وتبدو المصادر التاريخيّة شحيحة في الإخبار عن تفاصيل حياته وطبيعة شخصيّته، ويبدو أنّه التقى الفيلسوف والشاعر فيلوديموس (Philodemos) وتعلّم على يديه. وتعود شهرة لوكريتيوس إلى قصيدته المطوّلة الموزّعة على ستّة أجزاء بعنوان «في طبيعة الأشياء»، فقد عُدّت من روائع الأدب اللاتيني. ويبدو موضوعها متأثّرًا بفلسفة ديمقريطس وأبيقور، وهو يدعو فيها إلى تحرّر الإنسان من خوفه من الآلهة والموت والعقاب، فكلّ شيء آيل إلى الزوال وفق قوانين أبديّة تتحكّم في الكون، ومن ثَمّ ينفي لوكريتيوس إمكانيّة وجود تأثير قوّى ما بعد الطبيعة، مثلما ينكر وجود حياة بعد الموت، وهو يقرّ أنّ النفس مجرّد رابطة مؤقّتة للأجسام ومصيرها الفناء والتلاشي حتمًا، مثلها في ذلك مثل الجسد الذي يتحلّل بمفعول الموت إلى ذرّات، وإدراك حتميّة الفناء يلغي الإيمان بوجود حياة بعد الموت وعقاب أو جزاء... وهذا من شأنه أن يكشف الطريق إلى السعادة، فهو عامل رئيس في إزالة مخاوف الإنسان من هذا الجانب. ويقترب لوكريتيوس ههنا من أبيقور في القول بأنّ اللذّة هي غاية الوجود. إلاّ أنّ اهتمامه بالبعد الفردي لم يلغ وعيه بقيمة الاجتماع في الحياة الإنسانيّة لذا نجده يؤكّد أنّ السعادة في هذه الحياة لا يمكن أن تتحقّق إلاّ بالتزام الإنسان بسيادة القوانين وخضوعه لها. ويُذكر أنّ شيشرون هو من حرص على نشر قصيدة لوكريتيوس هذه بعد موته، ليمتدّ تأثيرها إلى بعض فلاسفة عصر النهضة الأوروبيّة. لم يعمّر لوكريتيوس كثيرًا، إذ تُوفّي سنة 55 ق. م. وتذكر المصادر التاريخيّة أنّه انتحر. انظر:

https://www.mominoun.com/articles/%D984%%D988%%D983%%D8%B1%D9%8A%D8%AA%D98%A%D988%%D8%B3_ucretius_1141

بوجيز العبارة، تحدَّرت الآلهة من الأوهام نفسها، ومارست الدّور نفسه، لذا لن يكون بمقدورنا أن نضع لها تسلسلًا هرميًّا.

يتخيّلُ المؤمنون دائمًا الآلهةَ التي يعبدونها على صورتهم. فالهندوسيّون المُسالمون عَزوا تسامحهم ولطفهم إلى يوذا. والقرطاجيّون والمسيحيّون واليهود وهبوا آلهتهم الروحَ الانتقاميّة التي أحيتهم.

تجلّى أحد أكثر أدوار الأديان فائدة في خلق يقين بوجود مستقبليّ قادر على تجميل الحياة الراهنة. فالإنسان الواثق من السّعادة الأزليّة هو أسعد من الإنسان الذي يعتقد أنّ وجوده عابر. وحده الخوف من الجحيم هو الذي يمنعه من أن يكون سعيدًا تمامًا.

وبعد، يظهر تأثير الأديان بصورة رئيسة في الفنون التّشكيليّة. تجسّدتِ الأعمالُ الفنيّةُ العظيمةُ في مصر، والهند، وأوروبا، في الآثار الدينيّة. بعبارة أخرى، كان لا بُدّ من بناء معابدَ أزليّة تليق بالآلهة التي اعتُبِرَت أزليّة.

تكمن إحدى أهم قوى الآلهة في صعوبة استبدالها. فالأوهام الاشتراكيّة هي أقلّ إرضاءً للروح من الأوهام الدينيّة.

وعليه، تُفسِّر السيكولوجيا انتشار المعتقدات الدينيّة، بيد أنّ ولادة الآلهة تبقى عصيّة على التّفسير. كيف وُلِد: مولوخ،[1] وجوبيتير، وأبولون، ويهوه،

---

(1) مولوخ (بالإنجليزية: Moloch)، (باليونانية: Μολώχ)، (بالعبرية: מֹלֶךְ) ورد ذكره في الكتاب العبري ـ هو إله كنعاني قديم، وإله الفينيقيين، انتسب تاريخيًا إلى ثقافات عديدة في كافة أنحاء الشرق الأوسط منها ثقافة العمونيين والثقافة العبرية والكنعانية والفينيقية، وأيضًا ثقافات بلاد الشام وشمال إفريقيا. مولوخ كان إلهًا ذا نزعة شريرة، كان لا يرضيه شيئًا إلا قرابين الأطفال، التي كان الفينيقيون القدماء يقدمونها له لإرضائه، فيُحرق الأطفال بالقرب من مذبحه ويقدمون له كقربان. انظر: ويكيبيديا.

وغيرهم كثيرون؟ بعض الأديان، مثل الدين الإسلاميّ، خرجت برمّتها من ذهنِ شخصٍ مُهَلْوِسٍ، لكنّ هذا الأصل لا يُطَبَّق على تاريخ الآلهة كلّها.

من دون شكّ، ستختفي الآلهة الأخيرة مع الأناس الأخيرين فحسب.

2 ـ سلطة المعتقدات

الواقع أنّ الإنسان الذي يُهيمن عليه معتقدٌ بعينه يرى طاقته تتزايد بشكل ملحوظ. لقد قيل إنّها يُمكن أن ترفع الجبال.

لا تتعلّق قوّة معتقد، مثل الدين الإسلامي أو البلشفيّة، في العقائد التي يُعلّمها، بل في طاقة القناعات التي يُلهمها.

بهذا المعنى، لم تؤسَّس وحدةُ الفكر، التي تمنح شعبًا بعينه قوّة كبيرة، حتّى الآن إلّا على معتقدات دينيّة. بعبارة أوضح، لم ينجح العقل وحده بعد في تحقيق التّضامن بين النّاس.

على الرّغم من أنّ مرور الزّمن كفيلٌ بجعل معتقدٍ ما يختفي، فإنّه يحتفظ طويلًا بتأثير قويّ جدًّا في النّفوس حتّى يُصبح دافعًا إلى الفعل. في هذا السياق لم تجد كراهية بعض الدبلوماسيّين الإنكليز المتشدّدين تجاه المسلمين مردّها في أسباب أخرى غير تلك التي ذكرتُها.

لا يكفي الجوع والحبّ أبدًا كي يدعما حياة العالَم، كما أكّد شاعرٌ كبيرٌ. ينبغي أن يُضاف إليهما الأمل الذي تخلقه المعتقدات.

تحكم الآلهة المنتقِمة على مخلوقتها بالعذاب الأبديّ عقابًا لها على أخطاء طفيفة ارتكبتها، مع العلم أنّ هذه الأخطاء كان لها أهميّة ملحوظة في العصور البربريّة الكبرى. مع ذلك، لا يُمكن الدّفاع، في أيّ حقبة متنوِّرة، عن وحشيّتها.

لا يُمكن أتباعُ الديانات التّوحيديّة الكبرى أن يكونوا مُتسامحين. وعليه، يعتبر هؤلاء الأتباع، انطلاقًا من ادّعائهم امتلاك الحقيقة المطلقة، أنّه من واجبهم ذبح الكفّار من أجل اجتثاث الضّلال. إذا كانت البروتستانتيّة قد غدت متسامحة، فذلك لأنّ انقسامها إلى طوائف كثيرة قرَّبها من تعدّد الآلهة.

على المقلب الآخر، طالما كانت الأديان المتعدّدة الآلهة متسامحة. فالحروب الصّليبيّة، والحروب الدينيّة، ومحاكم التّفتيش، ما كانت لتحصل على الإطلاق لدى الشّعوب التي تؤمن بتعدّد الآلهة. إذا انتهى الأمر بروما، التي عُرِف عنها تسامحها الدينيّ الكامل، إلى اضطهاد المسيحيّين، فذلك لأنّها كانت تبحث عن زعزعة سلطتها السياسيّة.

في السياق نفسه، إذا شكّل الانتماء إلى التّوحيد عنصرَ تفوّقٍ بالنّسبة إلى ديانة بعينها، فينبغي لنا أن نضع الديانة الإسلاميّة في المصاف الأوّل. الواقع أنّها تُمثِّل وحدها الديانة التوحيديّة الحقيقيّة. فربّ اليهود يهوه[1]

(1) يهوه هو الإله الوطني في العصر الحديدي لممالك إسرائيل ويهوذا. أصوله متنازع عليها، على الرغم من أنها تصل إلى أوائل العصر الحديدي وحتى البرونزي المتأخر. يُعتبَر اسمه كنية للإله إيل من العصر البرونزي في كنعان، ولكن أقدم ذكر مقبول ليهوه هو في النصوص المصرية التي تشير إلى اسم مكان مماثل مرتبط ببدو الشاسو جنوب الأردن. في أقدم نصوص الكتاب المقدس، يهوه هو «محارب إلهي» نموذجي من الشرق الأدنى القديم، ويقود «الجيش السماوي» ضد أعداء إسرائيل، وأصبح في وقت لاحق الإله الرئيسي في مملكة إسرائيل ويهوذا، ومع مرور الوقت رُوِّجَ ليهوه على أنه إله الكون كله، ويمتلك كل الصفات الإيجابية التي نسبت سابقًا إلى غيره من الآلهة والإلهات. بحلول نهاية المنفَى البابلي (القرن 6 قبل الميلاد)، نُفي وجود الآلهة الأخرى من الأساس وأُعلِنَ يهوه خالق الكون والإله الحقيقي لكل العالم. انظر: ويكيبيديا.

كان له منافسون كثيرون، لذلك لم يستطع أن يُسيطر بشكل كامل. أمّا إله المسيحيّين فيشتمل على ثلاثة أشخاص، وعلى جيش من القدّيسين الذين يُعتبرون بمثابة آلهة ثانويّة يُمكن مقارنتها بالآلهة الوثنيّة.

وبعد، تصرّف مؤسّسو الأديان بحكمة عالية من خلال منح آلهتهم كلّ المشاعر التي تُحرِّك النّاس. وعليه، إذا كانت هذه الآلهة غيورة، وسريعة الغضب، وتمثّلها، فذلك لأنّ تمثّلها بخلاف ذلك لن يُغويَ أحدًا.

إلى ذلك، أَمَرَت تانيت[1] Tanit، في قرطاج، بذبح الأطفال. وطلبت آلهة هوميروس من أغاممنون أن يُضحّي بابنته.[2] تتطلّب الأفكار الحديثة

---

(1) تانيت (تينيت، تانايت، تانيث، تنت، أو تانيس) هي إله أُنثى مبجلة عند سكان شمال إفريقيا قديمًا. اشتهرت بعبادتها لدى القرطاجيين، وتعتبر حامية مدينة قرطاج. «عُبدت إلى جانب بعل آمون، وكانت تسمى: وجه بعل. وتعتبر تانيت رمزًا للأمومة والخصب والنماء وازدهار الحياة، وكانت مصدرًا للتقوى والمحبة بين القرطاجيين، فكانوا يهبون لها القرابين الثمينة ويقسمون باسمها إذا أرادوا إثبات وفائهم وصدقهم. ورد في نقش قرطاجي: «إلى الربة تانيت، وجه بعل، وإلى الرب بعل آمون، هذا ما كرّسه بُدملقرت بن عبد ملقرت بن هملقرت، لأنه سمع صوته، فليباركه الإله». وقد عثر على أكثر من 2000 لوح نقشي بنصوص شبيهة بهذا النص، بل تكاد تكون واحدة في عبارتها لا يتغير فيها شيء سوى أسماء القرطاجيين، وقدّر زمنها بمئتي سنة قبل دمار قرطاج». وقد احتلت تانيت منذ القرن الخامس قبل الميلاد المرتبة الأولى في النصوص القرطاجية. انظر: ويكيبيديا.

(2) أَجَامِمْنُون: (باليونانية القديمة: Ἀγαμέμνων) (في الميثولوجيا الإغريقية) هو ابن أتْربوس وإيروبي وشقيق الملك مينلاوس (Menelaus) ملك إسبرطة، وهو الذي قاد الحملة التي ذهبت إلى طروادة لإستعادة هيلين زوجة الملك مينلاوس التي هربت إلى طروادة مع بارس. هذه إحدى قصص إلياذة هوميروس، والتي اشتهر فيها الحصان الخشبي المعروف بحصان طروادة. عداوته لآخيل: تروي الإلياذة كيف كانت هناك صراعات دائمة لأغاممنون مع أخيلس Achilles بطل الإغريق على الغنائم، وهذا أدى إلى انقضاء تسعة أعوام ونصف العام من دون آخيل، ومن ثمّ دخول آخيل في المعركة بعد قتل (هكتور) صديقه العزيز (باتروكلوس). مقتله: تروي الأوذيسة كيف قامت زوجة أغاممنون، كلتمنسترا Clytemnestra وعشيقُها إيجسثوس Aegisthus، بقتل أغاممنون وذلك بعد عودته منتصرًا من حرب طروادة. قصة مقتله: قبل ذهابه

الموروثة من الآلهة القديمة المزيد من المجازر أيضًا. يكفي أن نُشير، في هذا الصّدد، إلى أنّ الآلهة الجديدة التي أُشير إليها في عصر الثورة باسم الحريّة والمساواة لطّخت أوروبا بالدّماء لمدّة عشرين عامًا.

الحقّ أنّنا لا نحصي المجازر التي تسبّبت فيها الفكرة الشيوعيّة.

على المقلب الآخر، نجد أنّ العبث يبقى مجهولًا في مجال الإيمان الدينيّ. بهذا المعنى، لا يُمكننا أن نُشير، على امتداد التاريخ، إلى معتقد واحد ـ مهما كان وحشيًّا ـ لم يَحظَ بمدافعين كثيرين عنه.

تعود حماسة رُسل الديانة الشيوعيّة إلى كون المعتقدات الدينيّة الجديدة تُوعز إلى أتباعهم دائمًا بالرغبة في تدمير بقايا الإيمان القديم. لذا لا يتردّد المعتنقون الجدد، على غرار بوليوكت[1] Polyeucte قديمًا، في التّضحية بحياتهم من أجل تدمير الآلهة المزيَّفة.

يتبنّى النّاس في كلّ حقبة من حقبات تاريخهم الديانات والفلسفات التي تتناسب معهم. على الرّغم من أنّها لا ترتبط بأيّ علاقة مع الحقيقة الواقعيّة، فإنّها مفيدة للغاية من أجل خلق تفسيرات لا يُمكن العقل البشريّ الاستغناء عنها.

إلى حرب طروادة قدم ابنته قربانًا للآلهة، ولذلك كانت زوجته تحمل الضغينة له. وعندما عاد بعد عشر سنوات قامت زوجته بوضع بساط أحمر ينتهي إلى الحمام كي يذهب إلى هناك فيقابله عشيقها ويقتله. انظر:

https://ayyamsyria.net/encyclopedia/%D8%A3%D8%BA%D8%A7%D985%%D986%%D988%%D986% _ %D8%A3%D988% _ %D8%A3%D8%AC%D8%A7%D985%%D985%%D986%%D988%%D9/86%

(1) إشارة إلى بوليوكت، أو شهيد بوليوكت، وهي مأساة خَطَّها بيار كورناي في العام 1641. وهذه المأساة مستوحاة بدورها من استشهاد بوليوكتي دي ميليتين في عهد فاليريان في العام 259.

في هذا السياق، كتب باسكال: «إذا كان هناك إله، فإنّه يتعذّر فهمه تمامًا... لذا نجدنا عاجزين عن معرفة ما إذا كان موجودًا أو غير موجود». إلى ذلك، لم يُحرز العلم اليوم تقدمًا ملحوظًا في هذا الصّدد. مع ذلك، راح يُقرّ أكثر فأكثر بأنّ الآلهة إذا وجدت، فهي لا تتدخّل أبدًا في حياة البشر.

خلاصة القول: إنّ الإيمان بأنّه ينبغي لنا أن نؤمن، هو في حدّ ذاته إيمان مُسبَق.

4 ـ العقل والإيمان

لا تصدم عبثيّةُ الحلم الحالِمَ، تمامًا كما لا تصدم عبثيّةُ أيّ معتقد دينيّ أو سياسيّ المؤمنَ. ذلك بأنّ الأحلام والمعتقدات تمتلكان هذه الخاصيّة المشتركة لجهة التفلّت تمامًا من سلطة العقل.

حقيقة الأمر أنّ قوّة المعتقدات الدينيّة، وضعف تأثير العقل فيها، يتبديان بوضوح عندما نرى عبقريّات كبرى، مثل ديكارت وباسكال، تَقبل عقائد دينيّة وتُدافع عنها كما لم يُدَافَع عنها منذ أمدٍ طويل. فعندما تناول نيوتن، على سبيل المثال، هذيان نهاية العالَم،[1] شُلَّ عقلُهُ تحت التأثيرات الصوفيّة التي سيطرت عليه تمامًا. من وجهة نظر العقل

(1) الحقّ أنّ الآراء تباينت في هذا الصدّد، ففي حين ذهب بعض المؤرّخين إلى القول بأنّ نيوتن تنبّأ صراحة بنهاية العالَم قبل العام 2060، لا سيّما بعد قراءته الكتاب المقدّس وتفسيره، ذهب مؤرّخون آخرون إلى نفي هذا الأمر. مع ذلك، عُثِرَ مؤخّرًا على مخطوطات تعود إلى نيوتن تناول فيها مسألة نهاية العالَم، حيث بيعت في دار مزادات أمريكيّة بما يتجاوز 500 ألف دولار.

المحض، فإنّ كلّ المعتقدات الدينيّة، منذ عبادة الأفعى،[1] وصولاً

(1) احتلّت الأفعى مكانة مميزة في الأديان والثقافات المختلفة، وذلك عائدٌ بالأساس إلى شكلها الطولي المميز، وعدم وجود أقدام تستخدمها في حركتها الانسيابية، وإلى نمط حياتها الفريد، إذ تختفي معظم الأحيان ولا تظهر إلا بتوقيت مفاجئ ومن أماكنَ مجهولة. وكثيرًا ما ارتبطت بمعاني الشرّ والأذى، بسبب إفرازها للسموم الفتاكة التي تودي بحياة من يُعرض لها، ولخبثها وسلوكها المباغت عند الهجوم.
ونجد الأفعى عند الفراعنة حاضرة وظاهرة في الرسومات والكتابات الدينية، كما يوجد الإله «أبو فيس»، والذي هو أفعى شريرة، تلقب بـ«شيطان الظلام»، وهو رمز للشر، وبالرغم من ذلك أقام الفراعنة طقوس العبادة له، في محاولة لاسترضائه، وذلك لارتباطه بالكوارث الكونية، كالزلازل، والفيضانات، والأعاصير، وضمن تصورات صراع الخير والشر، نجد «أبو فيس» يخوض صراعًا مع الإله «رع»، إله الشمس.
وفي بلاد ما بين النهرين، استُخدمت الأفعى كرمز ديني في الألواح والمنحوتات الدينية عند السومريين، وكذلك عند الآشوريين. وعند الأكاديين يظهر المخلوق الأسطوري «موشوسو» الذي له رأس حية، واستخدم كتجسيد ورمز لعدد من الآلهة، واشتهر لوجوده على بوابة عشتار. ويرد في أسطورة الخلق البابلية «إينوما إيليش» وصف الأفعى بالخبث، فبحسب الأسطورة أن إلهة المحيط «تيمات» بعدما ثارت خلقت «الأفعى الخبيثة والتنين».
وفي الهند، عُبدت الأفاعي كآلهة، وهو ما يستمر إلى اليوم في الطقس الاحتفالي الشهير المعروف بـ«ناجا بانتشامي»، في اليوم الخامس من الشهر الخامس في التقويم الهندوسي، ويقدم فيه المؤمنون الحليب والفضة لأفاعي الكوبرا، طلبًا منها لتوفير الحماية والوقاية من الشر، وتظهر أفاعي الكوبرا على أعناق الآلهة «شيفا» و«فيشنو»، الإلهين الرئيسيين في الديانة الهندوسية.
أما عند الإغريق، فاختلفت النظرة إلى الأفاعي تمامًا، واعتُبرت سببًا للدواء والعلاج، مع إثبات الطب اليوناني أن سُمّ الأفعى له مفعول الشفاء إن تناوله المريض بالفم، ومن هنا ظهرت الرموز الشهيرة، ككأس «هيجيا»، إلهة الصحة والنظافة، والتي هي اليوم رمز للصيدليات حول العالم، وعصا هرمس، وهي العصا الشهيرة التي ترسم مع ثعبانين ملتفين وفوقهما جناحان، وتُستخدم اليوم كرمز للطب حول العالم، وعصا «أسكليبيوس»، ابن الإله أبولو، وهو إله التطبيب والشفاء من الأمراض، والتي هي عبارة عن أفعى ملتفة حول عصا.
في اليهودية والمسيحية، صُوّرت الأفعى كمخلوق غاية في المَكر والشرّ، وجاء في سفر التكوين أنّ الثعبان هو من أغرى حواء بإقناع آدم للأكل من شجرة المعرفة، ومن

إلى عبادة اللّٰه، تملك قيمة متساوية إلى حدّ كبير، ذلك بأنّها تتأتّى من أوهام سيكولوجيّة متماثلة.

وبعد، لو أمكن للمؤمنين أن ينشغلوا بالقيمة العقلانيّة لمعتقداتهم، لما وُجِد مؤمنون على الإطلاق.

الواقع أنّ المؤمن الذي يرفض التّفكير في إيمانه كي لا يفقده هو ضحيّة خوف وهميّ. لا ينجح العقل في تدمير أيّ معتقد إلّا عندما يُصبح هذا الأخير قريبًا من الموت في نفس المؤمن.

كي نتبيّن بأيٍّ بطءٍ يؤثّر العقل في المعتقد، ينبغي لنا أن نتذكّر أنّ آلاف النّاس أُحرقوا أحياء، على امتداد قرون عدّة، من جرّاء علاقاتهم المفترضة مع الشيطان.

تُظهِر المطالبةُ بتدمير أيّ ديانة من خلال اضطهاد أتباعها، كما فعل الراديكاليّون لفترةٍ طويلة في فرنسا، إلى أيّ حدّ تظلّ الأسس السيكولوجيّة للمعتقدات مجهولة.

«إنّ القلب هو الذي يشعر باللّٰه وليس العقل»، قال باسكال. الحقّ أنّ الآلهة تهلك سريعًا إذا كانت أحكام القلب هي عينها أحكام العقل.

يعيش المتعبّدون المثاليّون، مثل متوحّدي Port ـ Royal، ومثل

ثَم عُوقِبَا بإخراجهما من جنة عدن، وبالتالي فالأفعى تظهر كتمثل وتجسيد للشر والشيطان. وفي الإسلام، نجد الاعتقاد بـ«الثعبان الأقرع»، والذي جاء في الحديث النبوي بأنه يأتي يوم القيامة يطوّق كل من آتاه اللّٰه تعالى مالًا فلم يؤدِّ زكاته، يقول له: «أنا مالك أنا كنزك» (صحيح البخاري)، وبالتالي فهو رمز للعذاب، ويحظى بمكانة ودور في العذاب والجحيم الأخروي. انظر:

https://hafryat.com/ar/blog/7

باسكال الذي سعى، من دون جدوى، إلى أن يكون واحدًا منهم، حياة بائسة للغاية. لقد أبطلَ خوفُهم الرّهيب من النّار أملَهم في الجنة، إذ كانوا يخشون على الدّوام من أن يُحرَقوا فيها.

يكمن أحد الأخطاء الكاثوليكيّة الحديثة في أنّها لم تفهم إلى أيّ حدّ غدا من غير المقبول الاقتصار على الحديث عن العذابات الأبديّة في جحيم لا أمل في الخلاص منه.

يُمكننا أن نتساءل: أين كانت الحضارات لتكون اليوم، لو خصّصت البشريّة، في سياق بحثها عن الحقائق العلميّة، جزءًا من جهودها المبذولة من أجل تعزيز الخضوع لإرادة الآلهة المتخيَّلة؟ مع ذلك، ربّما كان بإمكان هذه الأشباح المضلِّلَة وحدها أن تحمل الإنسان على بذل الجهود التي انبثق منها كلّ تقدّمه.

غالبًا ما يُعتَنَق دينٌ جديد على الفور، مع ذلك يحتاج إلى قرون طويلة كي يترسّخ في النّفوس، وإلى قرون طويلة أيضًا كي يمّحي منها. على الرّغم من مرور وقت طويل على وجود المسيحيّة، فإنّ الوثنيّة اليونانيّة ـ اللاتينيّة لم تختفِ تمامًا، ذلك بأنّ الفنّ بكلّ أشكاله ظلّ مترسِّخًا.

اعتبر المسيحيّون أنّ عبادة المصريّين التّمساحَ، والهندوسيّين الأفعى، هو ضرب من العبث، لكن لم يَدُرْ في خَلَدهم أنّ أحفادهم سيعتبرون بدورهم أنّ عبادة إله يحكم بضرورة ترك ابنه يُصلب كي يفتدي من عصوا أوامره، هو أيضًا ضرب من العبث.

قل كذلك عن الحضارات المستقبليّة التي سوف تُقرِّ بأنّ العلم هو المرشد الوحيد لها، ومع ذلك، ستجد مصلحة في تشييد الكاتدرائيات،

وبناء الجوامع، والمعابد، بحيث تُمكّن النّاس من أن يتضامنوا قليلًا بعضهم مع بعض، من خلال التأمّل في القوى الغامضة التي تحيط بهم، والتي تُجسِّد آلهتهم القديمة.

من وجهة نظر عقليّة محض، يتفوّق المختبر على الثّكنة، والكنيسة، لكن سوف تمرّ، على الأرجح، قرون طويلة قبل أن يغدو التخلّي عن الكنيسة والثكنة ممكنًا.

تكمن معجزة المسيحيّة الحقيقيّة في أنّها استطاعت أن تُقنِع، على امتداد عشرين قرنًا، عقولًا قادرة على التّفكير، بأسطورة مذهلة عن إله حكم على ابنه بعذاب مُهين، واختلق جحيمًا أبديًّا كي يُعذِّب مخلوقاته فيه.

بدورها كمنت إحدى قوى المسيحيّة في الولايات المتّحدة في أنّه نُظر إليها من وجهة نظر فائدتها الاجتماعيّة، من دون الانشغال بجانب الحقيقة أو الضلال التي تنطوي عليه.

إلى ذلك، أعطى مُبتكِرو الآلهةِ النّاسَ الرّجاء الثّمين، لكنّهم زَجُّوا بهم، على امتداد قرون، في سجن الجهل والضّلال.

الحقّ أنّه ما من مثالٍ إلّا وينطوي على جانب عظيم من الوهم، ومع ذلك، لا يُمكن أيّ شعب أن يتطوّر من دون تأثير مثال بعينه.

تُشتقّ عبارة «لا أُريد الإيمان بـ» من خطأ سيكولوجيّ. فأن نؤمن أو لا نؤمن أمرٌ لا يتعلّق البتّة بجهد تبذله الإرادة الواعية.

الفصل العاشر

رؤى فلسفيّة للعالَم

1 ـ مفاهيم فلسفيّة عن العالَم

هل العالَم حقيقيّ أو غير حقيقيّ، متناهٍ أو غير متناهٍ، مخلوق أو غير مخلوق، زائل أو أبديّ؟ لا يتوقّع العلم اللحظة التي سيغدو قادرًا فيها على الإجابة عن سؤال واحد من هذه الأسئلة.

تُظهِرُ استحالة اكتشاف الطّبيعة الحميمة لحياة المادّة والقوّة أنّ العقل البشريّ ما زال يقتصر على معرفة النتائج من دون أن يملك القدرة على الرّجوع إلى أسبابها.

إنّ الفيزياء هي علم الواقع، والميتافيزيقا هي علم اللا واقع، لكنَّ العالَم استرشد حتّى الآن بما هو غير واقعيّ أكثر بكثير مّما هو واقعيّ. وعليه، تبقى الميتافيزيقا هي المـُنَظِّر الأكبر للعالَم.

الواقع أنّ الرّغبة في الفهم سريعًا هي الحكم على الذات بعدم الفهم أبدًا.

تنجم التطوّرات الكبرى عن استبدال النوعيّ بالكميّ. فأدوات القياس

مثل الميزان، والغالفانومتر، والترمومتر، غيّرت أفكارنا، وشروط وجودنا أكثر من كلّ الأطاريح الفلسفيّة.

الحقّ أنّ حياة العقل المحض، أي حياة الكائن الذي يفتقر إلى الأعضاء الحسيّة، ومن ثمّ إلى الحساسية، ستكون حياة بائسة للغاية. لقد استشعر هوميروس هذا الأمر عندما قال لظَلِّ أخيل الذي أشار إليه أوليسيوس:[1] «أُفضِّل أن أكون مزارعًا بسيطًا على الأرض مِن أن أكون ملكًا في مملكة الظلمات».

عندما يُخال إلينا أنّ الكائنات المحيطة بنا تختفي، نتبيّن أنّها لم تفعل شيئًا سوى أنّها غيّرت شكلها. وعليه، إذا كان التلاشي التامّ مستحيلًا من النّاحية العلميّة، فإنّ العناصر الأساسيّة التي تُشكّل الكائنات لا يُمكن أن تُدرَك إلّا من منظور أبديّ.

يتألّف الماضي من حوادث ثابتة حتمًا. قل كذلك عن الحاضر سريع الزّوال الذي سُرعان ما يغدو ماضيًا ثابتًا بدوره. يتألّف المستقبل من عناصر غير ثابتة، لكنّها عناصر تُحدّدها سلفًا وضعيّة الحاضر.

ينجم الحاضر من الماضي الذي يسبقه، لذا يُمكننا القول بأنّ الحاضر يتكوّن بخاصّة من الماضي.

وبعد، لا نستطيع فهم الزّمن إلّا بوصفه متغيّرًا: تغيّر موقع نجم، وتغيّر عقرب الساعة الشمسيّة، أو أيضًا تغيّر الكائنات المحيطة بنا. الحقّ أنّ السماوات الأزليّة التي تُنادي بها الأديان لا يُمكن أن تتغيّر، لذلك يبقى الزّمن فيها مجهولًا بالضّرورة.

---

(1) بطل الملحمة اليونانيّة: «الأوذيسة».

يُنكِر بعض الميتافيزيقيّين حقيقة الزّمن، لكنّهم لا يستطيعون أن ينفوا وجود قانون كليّ يُجبر الكائنات على الولادة، والنموّ، والتدهور، والموت. يُمكننا أن نُطلِق على قانون التغيّر هذا اسم الزّمن.

أن تعيش يعني أن تتغيّر. فالتغيُّر هو روح الأشياء.

تتحوّل الطريقة التي نتبصّر فيها الحياة. فعوضًا عن أن ننظر إليها انطلاقًا من شخصيّتنا العابرة، ننظر إليها من خلال الشخصيّة الجماعيّة المستمرّة للعرق. في هذا السياق، حزن الملك خشايارشا[1] Xerxès حزنًا كبيرًا عندما علِمَ أنّه، في غضون قرن، لن يبقى أيّ رجل من جيشه العظيم على قيد الحياة. لكن لو أمكن له أن يعود في نهاية هذا القرن، فسيجد الجيش نفسه مكوّنًا من رجال في سنّ الشّباب، يملكون الوجوه نفسها، وسيعرف حينها أنّ الموت ليس حتميًّا، ذلك بأنّ الموتى يُبعثون سريعًا من خلال ذريّتهم.

إذا وجب تصنيف كلّ الظواهر الفيزيائيّة والكيميائيّة والبيولوجيّة، التي تتخطّى قدرات فهمنا، تصنيفًا يجعلها ظواهر فوق طبيعيّة، فإنّه لا يبقى، والحال هذه، ما هو فوق طبيعيّ في العالَم.

يُقرّ بعض الفلاسفة بأنّ العالَم، الذي نُدرِكه عن طريق حواسنا، هو

---

(1) خشايار الأول خشايارشا الأول أو أحشويروش الأول (بالفارسية: خشايارشا) (ولد 518 ق. م ـ توفي 465 ق. م). ملك فارسي حكم بين 485 ق. م ـ 465 ق. م. رغم كونه الصغير بين إخوته اختِيرَ خَلَفًا لأبيه داريوس الأول. حكم بين 485 و465 قبل الميلاد الملك الرابع في سلالة الأخمينيين ببلاد فارس. حاول غزو بلاد اليونان وفشل بعد عرضة جيشه لخسارة كبيرة في العدد، وتأخر في التحرك، على رغم فوزه في النهاية في معركة ترموبيل.

تكوين مُصطنَع أنتجته تلك الحواس. وبعد، لا يُهمّ كثيرًا ما إذا كان العالَم الذي نُلاحظه هو عالَم مصطنع ومُشوّه، ذلك بأنّ مجموع التشوّهات التي تُشكّله تخضع لقوانين تؤكّد ملاحظتُها اتساقَه وثباته.

أحبّوا بعضكم بعضًا، تقول الأديان. التهموا بعضكم بعضًا، تطلب إلينا الطبيعة. لو لم يُراعِ الإنسان، على غرار كلّ الكائنات، متطلّبات الطبيعة، لألفى نفسه قابعًا حتّى الآن في الكهوف من دون أن يخطو أي خطوة باتّجاه الحضارة.

بالنّسبة إلى الطبيعة، تملك حياة أعظم العباقرة الأهميّة نفسها التي تملكها خليّة ميكروبات أو خليّة نمل.

يبدو أنّ فهم العلل الأولى يتجاوز قدرة ذكائنا. وعليه، إذا جاء كائن متفوّق من عالم بعيد كي يشرحها لنا فإنّه لن ينجح في مهمّته، تمامًا كما لن ننجح نحن إذا أردنا أن نشرح مبادئ الجبر لقرد.

يتردّد العالِم دائمًا في تحديد أسباب أيّ ظاهرة. أمّا الجاهل فلا يتردّد أبدًا.

يتضمّن الحاضر المستقبل، تمامًا كما تتضمّن البلوطة السنديان. الواقع أنّ الزّمن يُخرِج السّنديان من البلوطة، لكنّه لا يخلقه البتّة.

2 ـ الحقيقة واليقين

يستغني النّاس بسهولة عن الحقائق. فهم لم يعيشوا أبدًا من دون يقين.

الواقع أنّ المعتقدات الأكثر عبثيّة في عيون العقل هي، بصفة عامّة، تلك التي ولّدت اليقين الأرسخ. امتلك النّاس على امتداد قرون يقينًا مفاده

أنّ مولوخ يُطالب بذبح الأطفال قربانًا له، وأنّ يهوه حكم بالعذاب الأبديّ على المخلوقات التي لا تخضع لقوانينه. يمتلك الشيوعيّون الحديثون يقينًا مماثلًا.

لم يُولد عصر التقدّمات العلميّة الكبيرة التي حوَّل الحضارات إلّا عندما نجح الإنسان في تمييز الحقيقة من اليقين.

إلى ذلك، تكون الأوهام ـ التي يُنظر إليها على أنّها يقينيّات ـ مثمرةً في بعض الأحيان، شأنها في ذلك شأن الحقائق. يبني العقل المحطّات، والمختبرات، لكنّه لم يُشيّد من عدمٍ الأهرامات، والجوامع، والكاتدرائيّات، وكلّ العجائب التي تُزيِّن حضاراتنا.

الحقائق العلميّة هي حقائق كليّة. أمّا اليقينيّات الدينيّة أو السياسيّة التي يُنظر إليها على أنّها حقائق هي، بشكل عام، معتقدات مُوَقَّتة تتأتّى من الأهواء والمشاعر، ولا تملك كسندٍ لها أيّ عنصر عقلانيّ.

الحقّ أنّ العقل البارد سيبقى على الدوام عاجزًا عن مواجهة اليقينيات المحمَّلة بآمال لا تنضب.

خلط الفلاسفة، الذين اعتبروا قديمًا أنّ كلّ رأي يحظى بقبول عام هو حقيقة، بين الحقيقة واليقين. بهذا المعنى، يخلق القبول العالميّ اليقينيّات. وحده العلم يبني الحقائق.

منذ العصور الأولى، اعتقد عُبَّاد الآلهة التي تسكن السّماء أنّهم امتلكوا اليقينيّات. لقد استغرق الأمر قرونًا من التّفكير من أجل اكتشاف عدم وجود أيّ أثرٍ للحقيقة في هذه اليقينيات.

إذا كان مصيرُ اليقينيات الدينيّة دائمًا هو الهلاك، فإنّ الحقائق العلميّة تبقى أبديّة. والحال أنّ الحقائق التي أوردها أرخميدس وإقليدس ما زالت تحتفظ بالقيمة نفسها حتّى بعد مرور ألفي عام.

تملك الأشياء، في المجال العلمي، قيمة حقيقيّة مستقلّة عن الآراء. بيد أنّها لا تملك، في مجال المعتقدات، قيمة أخرى سوى الفكرة التي تُكوَّن عنها.

ينبغي في بعض الأحيان انتظار زمن طويل قبل أن تُصبِح الحقيقة المبرهنة حقيقة مقبولة علميًّا.

تبقى الوقائع العلميّة المثبتة ثابتة، لكنّ تفسيرها يتغيّر مع تطوّر المعرفة. لقد تُجُووِزَت بالفعل نظريّات داروين وباستور. والذرّة التي كانت، قديمًا، معجزة البساطة، غدت معجزة التّعقيد.

ليس للشّكل أهميّة تُذكَر في العلوم التي تتوجّه نحو الذّكاء. بيد أنّه يملك، على العكس، أهميّة كبرى في الأدب الذي يتوجّه نحو المشاعر. بهذا المعنى، قدّم كتّاب مشهورون تصوّرات تافهة حول الحياة، والمجتمعات، والصّراع بين الشّعوب، إلخ. مع ذلك أُعجبنا بهم وبحقّ، تمامًا كما نُعجَب بتمثال من دون أن ننشغل بالمادّة التي تُكوِّنه.

لماذا لم يتخيّل مبدعو الأساطير عالمًا مأهولًا بكائنات لا تعرف الوهم؟ من دون شكّ لأنّه لا يُمكن تصوّر حياة كائنات كهذه.

مع ذلك، تنطوي الحقائق العلميّة الأصلب على جزء كبير من الأوهام. تكمن تطوّرات العلم، على وجه الخصوص، في اختزاله أو في الحدّ منه.

إذا كان الاعتقاد ذو الأصل الشّعوريّ أقوى على الدوام من الاعتقاد ذي الأصل العقلانيّ، فذلك لأنّ المشاعر تُسيطر بسهولة على العقل، في حين أنّ العقل لا يُمارس سوى تأثير ضعيف في المشاعر.

3 ـ قوانين الحياة

إنّ الطّفل الذي يُبصر النّور هو بالفعل طفل عجوز للغاية، لأنّه يُمثّل توليفة لماضٍ سحيق. بعبارة أوضح، تُلفى روحه مُكَوَّنةً من خلال تراكم مُخَلَّفات أرواح الأسلاف.

من الصّواب التّأكيد أنّنا لا نرى الكائن نفسه من جديد، ومن الصّواب أيضًا أن نُلاحظ مع هيراقليطس أنّ الإنسان لا يستحمّ في النّهر الواحد مرّتين. الواقع أنّ الإثبات الثّاني هذا أمر بديهيّ، في حين أنّه يلزم استخدام كلّ ما أحرزته السيكولوجيا من تقدّم من أجل ترسيخ التأكيد الأوّل.

تبدو الحياة اليوم كأنّها قوّةٌ مُوَجِّهَةٌ مُحَمَّلةٌ بالماضي، وقادرة على استخدام كلّ قوى الطّبيعة، ومع ذلك لا يُمكن هذه الأخيرة أن تخلقها. لم تخرُجِ الحياةُ، حتّى الآن، إلّا من الحياة. ففي مقدورها وحدها أن تُرغِم الخليّة المجهريّة، التي تبدأ منها كلّ الموجودات، على الخضوع للتحوّلات الضّروريّة كي تغدُوَ إنسانًا، أو فيلًا، أو سنديانًا. في هذا السياق، يُشير عجز العلم عن تفسير هذا اللغز بوضوح إلى حدود ذكائنا.

يُمثِّل التفوّق الاستثنائيّ، على نطاق الكائنات بأكمله، حالات تشويه بيِّنة. لهذا السّبب، تُعيد الطّبيعة ذريّتها إلى المستوى المتوسِّط للنّوع، لا سيّما أنّ الذريّة هذه تُشكِّل جزءًا منه.

على امتداد مئات القرون التي سبقت ظهور الإنسان، عاشت الكائنات الحيّة من دون أن تمتلك عقلنا. والحال أنّ تأكيدَ استرشادِ هذه الكائنات بالغرائز العمياء ما هو إلّا إشارة إلى الحالة البدئيّة لسيكولوجيّتنا.

تحدث الأمور في كلّ أفعال الحياة العضويّة كما لو كانت هناك أنماط معرفة متفوّقة أحيانًا، ومنحطّة في أحيانٍ أخرى، لكنّها تختلف دائمًا عن هذا الذّكاء.

الحقّ أنّ الحياة منيعة ولا تُقهر شأنها في ذلك شأن سائر القوى. وعليه، إذا كان الموتُ يُدمِّر الشّخصيّة تمامًا ـ الأمر الذي يُثبته كلّ شيء من حولنا ـ فإنّ عناصر الشخصيّة هذه تُسْتَخدَم من أجل تكوين موجودات جديدة. والحال أنّ الحياة الجماعيّة، وليس الفرديّة، هي التي ستكون خالدة.

حقيقة الأمر أنّ الصراع من أجل الوجود، والقدرة على التكيّف مع متغيّرات البيئة، هما اللذان يُنَجِّيانِ الكائنات الأكثر تميّزًا، ويجعلانها تتطوّر. أمّا الوراثة فإنّها تنقل التغيّرات التي اكتُسِبَت بالفعل. على الرّغم من الجهود المستمرّة، فإنّه ليس بمقدور العلم أن يُضيف شيئًا إلى تلك المفاهيم الموجزة المتعلّقة بأصل الكائنات الحيّة وتطوّرها. الواقع أنّ الجزء الرئيسيّ من هذه الظواهر يبقى عصيًّا على معرفتنا.

يبدأ الموت العقليّ منذ اللحظة التي تغدو فيها الآراء راسخة إلى حدّ لا تقبل معه أيّ تغيير. عندئذ يدخل الإنسان، ولو ظلّ شابًّا، في مجال الموتى. الحقّ أنّه يستعصي عليه تصوّر الحاضر والمستقبل إلّا بوصفها مُغَلَّفَيْنِ بالماضي.

إذا كانت القوى، التي جعلتِ الحياةَ تنبثقُ من المادة الخاملة،[1] تتمتّع بالذّكاء، فإنّ الضرورات العمياء ستُهيمن على هذا الذكاء، وتسلبه كلّ حريّة. وعليه، من غير المؤكّد بعد أنّ التّفكير العلميّ هو الذي خلق الكثير من الميكروبات الضارّة. يبدو أنّ الأسباب التي لم يفهمها عقلنا بعد، وحيث لا يُمكن للذكاء، كما نعرفه، أن يلعب أيّ دور، هي التي تُوجِّه تطوّر الكائنات.

تُعْتَبَرُ كلّ الكائنات متساوية بالنّسبة إلى القوى غير المـُفسَّرة، التي أخرجت الحياة من المادّة، والتي أدّت بعد قرون طويلة إلى انبثاق الفكر من الحياة. الحقّ أنّ الطبيعة تحمي أكثر الميكروبات ضررًا، تمامًا كما تحمي سائر الكائنات الأخرى.

4 ـ الحكمة والسّعادة

يُقرّ النّاس بالإجماع بأنّ السّعادة هي الهدف الرئيسيّ من الحياة، ومع ذلك نادرًا ما يتّفقون على الوسائل التي تؤدّي إلى تحقيقها. هل يتّبعون أهواءهم بشكل أعمى؟ تجلب هذه الأهواء القليل من الفرح في مقابل الكثير من الألم. الاسترشاد بنور العقل؟ حقيقة الأمر أنّ وضوحه غير يقينيّ. الخضوع لأوامر الآلهة؟ لقد صمتت منذ وقت طويل. يبدو لنا التكيّف ببساطة مع ضرورات بيئتهم هو الأكثر حكمة.

---

(1) العناصر الخاملة، أو العناصر النبيلة، عبارة عن مجموعة من العناصر الكيميائية، غير النشطة، أي التي لا تتفاعل مع العناصر الأخرى، بالنّظر إلى ارتفاع جهود تأينها، ولأنّها أقلّ العناصر ألفةً إلكترونيةً، بسبب امتلاء مداراتها الخارجية بالإلكترونات، وتقع العناصر الخاملة في المجموعة الثامنة في الجدول الدوري.

الواقع أنّنا لا نربح كثيرًا إذا فكّرنا في المصير. وبعد، قد تكمن الفلسفة الحقيقيّة في الطُّمأنينة الهادئة للحيوان الذي يرعى عشب الطّريق الذي يقوده إلى المـذْبَح.

إلى ذلك يُصبح هذا الحيوان نفسه بائسًا للغاية إذا اشتبه بوجود مَذْبَح.

تكمن إحدى أفضل الوسائل كي نكون سعداء في الاعتقاد أنّنا كذلك أو أنّنا سنغدو كذلك في يومٍ من الأيّام. والحال أنّ الأديان تلعب دورًا مهمًّا في حياة الشّعوب لأنّها تخلق يقينًا كهذا.

وعليه، غالبًا ما يكون السّباق السّريع من أجل تحقيق السّعادة سباقًا نحو البؤس.

من المفيد التّفكير في بعض الأحيان. ينبغي لنا، كي نبقى سعداء، ألّا نُفكّر كثيرًا.

عند هذا الحدّ نتساءل: هل الأمل في امتلاك الأشياء يجعلنا أسعد من امتلاكه؟ الحقّ أنّ الإجابة عن هذا السؤال تستوجب جهازًا لقياس السعادة.

حقيقة الأمر أنّ الانشغالات الأساسيّة للشّعوب منذ فجر التاريخ رَسَفَتْ عند حدود التّغذّي، والتّناسل، وتدمير بعضها البعض. ما من شيء يُشير أيضًا إلى أنّ وجودها يُمكن أن يُوَجَّه بطريقةٍ مختلفة.

تسود العالَمَ الفيزيائيَّ كما العالَمَ الأخلاقيَّ ثنائيّةٌ هي بمثابة القانون الأساسيّ للظواهر. فالدّفع والجذب في العالَم الفيزيائيّ يغدوان السّعادة والألم، والكراهية والحبّ في العالَم الأخلاقيّ.

الحقّ أنّ الجرأةَ خطيرةٌ من دون حُكم، والحُكمَ غيرُ مُجدٍ من دون جرأة.

لا شيء يُمكن أن يُفضي إلى الفعل من دون وجود فكرة تُوجِّه بصورة نافعة إرادةَ الفعل.

إنّ المعرفة من دون إرادة لا تخلق أيّ قوّة على الإطلاق.

غالبًا ما تُمثِّل الشّيخوخة شكلًا مُلطَّفًا للعبوديّة.

صحيح أنّ الثّقة ضروريّة في العلاقات بين الأفراد والشّعوب، إلّا أنّه ينبغي لها أن تبقى مُعَلَّقة وغير فاعلة حتّى تُسَوَّغ.

يلعب التسلسلُ الصّارمُ، الذي يُنعَت بالقدر، دورَه الفاعلَ في مجرى الحوادث فحسب.

يُمكن البطولة أن تُنقِذ شعبًا في الظّروف الصّعبة، لكنّ التّراكم اليوميّ للفضائل الصّغيرة هو الذي يُحدِّد عظمته.

خلاصة القول إنّ الظّلم الذي نستفيد منه سُرعان ما يُصبِح وجهًا من أوجه العدالة.

5 ـ اللا مُتَوَقَّع ومنطقةُ الأسباب

يُسيطر اللا مُتَوَقَّع على التّاريخ. فقد شكّلت معركة المارن، والتّدخّل الأمريكيّ، والخيانة الروسيّة، والهزيمة الألمانيّة سلسلة حوادث لم يكن بإمكان أيّ عقلٍ أن يتوقّعها. ينجم التّشاؤم الحاليّ، جزئيًّا، من شعور الشّعوب بأنّها محوطة بمخاطرَ غير متوقّعة.

إلى ذلك، هُزِمَ الألمان في المعركة الأخيرة من جرّاء العدد الهائل من الظواهر الاجتماعيّة اللا متوقعة. لقد جرى إعداد كلّ شيء بدقّة وعناية:

تحالفات، وتسلّح، إلخ، حتّى بدا الانتصار الألمانيّ مؤكّدًا. مع ذلك، هُزموا هزيمة ساحقة.

في كلّ الظواهر العلميّة أو الاجتماعيّة، تُتَجاوَز حدودُ المتوقَّع بسرعة. الحقّ أنّ علماء الفلك أنفسهم لا يتوقّعون إلّا حقائقَ بسيطة للغاية. لكن إذ تتعقّد الظواهر قليلًا، يَفْلِتُ منهم كلّ توقّع. والحال أنّ تحديد مسارات النّجوم الثّلاث التي تؤثّر بعضها في بعض ما زال مستحيلًا.

في الظواهر الاجتماعيّة، يحول تعقّد الأسباب، بصفة عامّة، دون توقّع النتائج.

ينطبقُ احتساب الاحتمالات، التي تسمح بتوقّع بعض الظواهر، مثل عدد الوفيّات، في سنٍّ معيّنة، وفي بلدٍ ما، ينطبق حصرًا على وقائع تتكرّر كثيرًا، ولا ينطبق على حالات معزولة. بعبارة أخرى، تنطبق التوقّعات على الحوادث الاجتماعيّة فحسب.

الواقع أنّ جهلَ السّبب الحقيقيّ للأشياء يُشكِّل على الدّوام مصدرًا مُتكرِّرًا للصراعات الاجتماعيّة والدّوليّة.

وعليه، ينبغي لنا أن نبحث في روحِ شعبٍ من الشّعوب عن أسباب مصيره، عِوَضَ أن نبحث عنها في الحوادث الخارجيّة. بهذا المعنى، أَفْلَت روما عندما أَلْفَت روحَها الوطنيّةَ مُفَكَّكةً تحت تأثير المعتقدات الجديدة، وتسلّل الأجانب المتكرّر إليها.

وبعد، تتفلّت الأسباب الحقيقيّة للحوادث من قبضتنا، عندما نهتمّ بأسبابها المباشرة فحسب، عوضَ أن نبحث عن مصادرها البعيدة. لهذا السّبب يستعصي عدد كبير من حوادث الحرب الكبرى على التّفسير.

بعبارة أخرى، تَحُول الأفكار الثّابتةُ دونَ إدراك الحقائق الأوضح. الحقّ أنّ الرؤية الجيّدة لا تقلّ صعوبة عن التوقّع.

إلى ذلك، تستعصي جملةُ آثار مرئيّة على الفهم لأنّها تُظهِر الأسباب اللا مرئيّة، أي الأسباب المَنِيعة.

لم يكن من الصّعب التنبّؤ بوجهة التاريخ القادمة كما هي الحال اليوم. تملك بعض الاكتشافات العلميّة مثل القوى الدّافعة النّاتجة عن الفحم والبترول، تأثيرًا كبيرًا في حياة الشّعوب، تأثيرًا أكبر بكثير من ذاك الذي مارسته قديمًا الصراعات الدينيّة أو طموحات الملوك.

من بين آلاف النّاس الذين يتطلّعون إلى تشييد مملكة القانون والعدالة، نتساءل: كم يبلغ عدد أولئك القادرين على تعريف القانون، وفهم العدالة؟

بوجيز العبارة، لو أمكن العقل والقلب أن يستخدما المعيار نفسه في الحكم على الحوادث، لجرى تفسيرها بطريقة مختلفة تمامًا.

انتهى

الحقّ أنّ الكاتب يستشرف ملامح حقبة جديدة بالتّمام. ولهذه الغاية، لم يكتفِ بمعالجة الأطر السياسيّة والاقتصاديّة والسيكولوجيّة، كما كان دأبه في الكتب السّابقة، بل عمد كذلك، إلى حَشْدِ جملةٍ من المفاهيم الفلسفيّة، والأفكار العلميّة، في محاولة منه لتقصّي المسألة العالميّة بعامّة، والأوروبيّة بخاصّة، من كافّة جوانبها. من هذا المنطلق، نظر غوستاف لو بون إلى التّحالفات القائمة نظرة نقديّة، ودرسَ بنية الثّورات دراسة موضوعيّة دقيقة وشاملة، وتبيَّنَ تغيّر ذهنيّة الحكّام، ناهيك بتطرّقه إلى الدمار الذي تسبّبت فيه الحرب على المستويين الماديّ والفكريّ، وسبل مواجهة الخراب الذي خلّفته.

لوحة الغلاف: وسام البغدادي (العراق)

ISBN 978-9-9226438-9-2

789922 643892

daralrafidain
dar.alrafidain
daralrafidain دار الرافدين
www.daralrafidain.com
info@daralrafidain.com
Dar ALRafidain دار الرافدين